

السحاب الأحمر

مصطفى صادق

الرافعي



الفصل الأول

القمر الطالع

في يدي الآن هذا القلم الذي أكتب به، وهو سنّ قائمة في نصاب ١ من الزجاج أحمر صافٍ يشفّ عن داخله؛ فإذا طاف به النورُ أشفّ فيه، ٢ وانصبغ بلونه؛ فرمى على إصبعي ظلًّا مجروحًا، ٣ يريك الجلدَ كأنما جُرحه من فوقه لا من تحته.

فإذا راوحت يدي، ٤ ولَبَّثته أناملي، رأيت له بريقًا يستطير فيه كأنه شُعْلَةٌ من اللهب حبستُها معجزةً في غودٍ من الثلج.

فإذا استعرضته بين العين وبين الضوء الساطع، رأيت منه ياقوته حمراء قد افترّ فيها نَبْعٌ كالقم الحلو، يتنفس على قلبي الحزين بابتسامات تأتي إليّ وفيها ألوانٌ شفافها الوردية!

فإني أجالسُ ذات مرّة في جوف الليل أكتب على ضوء الكهرباء، إذ طارت فيه نظرةٌ من نظراتي، وكان بإزاء الشعيلة؛ ٥ فرأيت في خلاله من انعكاس الضوء شُمَيْسَةً صغيرة لم أر قطُّ أحسنَ منها حُسْنًا، كأنها سَبِيكَةٌ تحترق، وتتناثر ضبابًا من بخار الذهب؛ فمددت النظر؛ فإذا أنا بتلك الشُمَيْسَةِ كأنها إحدى عذارى الجنة انغمست في غدير صافٍ فحوّلها جمالها، فانقلب من معنى الماء إلى معاني الجمال المستحي؛ فاحمرَّ كأنه لون خدٍّ مُورَد!

وراعني ما أبصرت، فاستأنيت لحظةً، ثم رفعت طرفي إلى مدار هذا الكوكب، فجعل يرمي بمثل شَقَائِقِ البرق ٦ تلمح واحدة لواحدة، ثم انقلب يتصرّم كالنور المُسْتَعِر، ثم عاد لُجَّةً من «السحاب الأحمر» يموج بعضها في بعض كالحب المتوهّج، يملأ فراغ قلب كبير؛ فاختلج الذي هو في صدري؛ وحَضَرْتُني ٧ حاضرةً من الذكري لم تكد تعرض للفكر حتى انفلق السحاب عن وجه فاتن كالقمر الطالع، وكان متمثلًا في نفسي مُدَّ أبصرتُ تلك الشُمَيْسَةِ، فكأنما أرى من السحاب مرآة فانطبع فيها؛ وما تَلَبَّثُ إِلَّا يسيرًا ثم اختفى.

وغصتُ في هذه النفس أفكر فيما رأيت، وأنا أمسكُ على قلبي أن يطير، فإذا «السحاب الأحمر» يُمطر عليّ مطرةً من الخواطر والكلمات، يتلاحق منها طرف بعد طرف، وتُقبل طائفة وراء طائفة؛ كأنّ متكلمًا يتحدث بها في نفسي، أو كأنه وحيٌّ يُوحى من مَلَكِ الجمال؛ فأسرعت أدونها، وأحصيتها تحت عيني تلك الصورة الجميلة المشرقة عليّ، حتى امتلأ البياض سوادًا، واستفاضت روحُ الحبر الأسود بالهم، على صدوع القلب وعلى شعابه. ٨

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السحاب يعرض لي صورًا أعرفها، فإذا مثَّلها فاستوحيثُها الفكرة سَحَّ عليّ الخواطر من روحها، فأقبلت كالقمر يُفرغُ إفراغًا دَفْعَةً من غير تَلَبُّث. ٩

...

رأيت وجه فتاة عرفتها قديمًا في ربوة من لبنان، ينتهي الوصفُ إلى جمالها، ثم يقف؛ ١٠ كنت أرى الشمس كأنما تجري في شعرها ذهبًا، وتتوقد في خدّها ياقوتًا، وتسطعُ في ثغرها لؤلؤة، وكنت أرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم، فإذا تأملت شفثيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنته؛ وكانت لها حينًا خفَةُ العُصفور، وحينًا كبرياءُ الطاووس، ودائمًا وداعةُ الحمامة المستأنسة؛ وكانت روحها عطرةً تنفُحُ نَفْحَ المسكِ إذا تشامَّت الأرواحُ الغزلةُ بالحاسة الشعرية التي فيها!

وكنت إذا رأيتها بجُملة النظر من بعيد صَوَّر لها قلبي من الحسن والهوى ما يموت فيه مَوْتَةً ثم يحيا؛ فإذا جالسْتُها، وأثبتُ النظرَ فيها رأيتها في التفصيل شيئًا بعد شيء، كما أنظر نجمًا بعد نجم: كلها شعاع، وكلها نور، وكلها حُسن!

وما نظرتُ مرة إلى النساء حولها إلا وَجَدْتُ من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف من جهتها عاليًا، ويتضاعف منهن نازلاً؛ نازلاً؛ كأنه ليس في الأمر إلا أنها أُخِذَتْ من السماء، ووُضعت بينهن!

هي كالفتنة المحتومة تنبعث إلى آخرها، فليس منها شيء إلا هو يُحسن شيئاً، ويُشوق إلى شيء، وبعضها يُزين بعضها.

...

لقد تَرَخَى الزمنُ بي وبها! فلو عددت لأُحصيتُ مائة وخمسين قمرًا منذ فارقتها، وما أحسب الأرض إلا انصدعت بيننا عن أقيانوس عظيم من الزمن تملؤه الأيام والليالي، فلا يخاض، ولا يُعبر، ولا ينظر فيه أهلُ ساحل أهلٍ ساحلٍ غيره.

وعلى أنَّ هذا الزمن قد محا في قلبي من بعدها وأثبت، فلا تزال تنشقُّ لها زَفَرَةٌ من صدري كلما عَرَضَتْ ذكراها، كَأَنَّ القلبَ يسألني بِلُغَتِهِ: أين هي؟

والقلب الكريم لا ينسى شيئاً أحبه، لا شيئاً أَلْفَه؛ إذ الحياة فيه إنما هي الشعور، والشعور يتَّصِلُ بالمعدوم اتصاله بالموجود على قياس واحد، فكأنما القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات بعضَ السرِّ الأزلّي الذي يحيط بالأبعاد كلها إحاطة واحدة؛ لأنها كلها كائنة فيه: فليس بينك وبين أبعد ما مرَّ من حياتك إلا خطوة من الفكر، هي للماضي أقصرُ من التفاتِ العين للحاضر.

...

ليس بجمالٍ إلا ذلك الروحُ الذي يرفع النفسَ إلى أفق الحقيقة الجميلة، ثم ينفخ فيها مثل الفِوَّة التي يطير، ويدعها بعد ذلك تتراعى بين أفق إلى أفق؛ فإِذَا انتهى المُحبُّ إلى حيث يصير هو في نفسه حقيقةً من الحقائق، وإِذَا انكفأ من أعاليه، وبه ما بالطيارة الهاوية: رَفَعَتْ راكلها إلى حيث ترمي به ميتاً، أو كالمغشي عليه من مسِّ الموت!

والذين ينكرون أن الجمالَ يَقْتُل أحياناً، أو يجعلُ الحياة كالقتل، ثم يدَّعون مع ذلك هوًى وحباً، إنما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التي يجبُّون بها الذهب، والفضة، وورق البنك ...

وليس بحبٍ إلَّا ما عرفته ارتقاء نفسياً، تعلو فيه الروح بين سماوين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرأتين: يكون واحداً وترى منه العينُ ثلاثة مصابيح؛ فكان الحب هو تعدُّد الروح في نفسها، وفي محبوبها.

...

ولا سُمُو للنفس إلا بنوع من الحب مما يشتعل إلى ما يتنسم؛ من حب نفسك في حبيب تهواه، إلى حب دمك في قريب تُعزُّه، إلى حب الإنسانية في صديق تَبْرُهُ، إلى حب الفضيلة في إنسان رأيته إنساناً؛ فأجللته وأكبرته.

فإذا أنت أصبت في الخليفة من أغفل الله قلبه ١١ عن تلك الأربعة! فلا حب، ولا صلة! ولا يَأْلَف ولا يُؤْلَف، فذلك هو الذي لا نفس له من نفوس الناس، كأنه سَبُع من السباع الضارية، أو هو الذي كله نفس، كأنه نبي من الأنبياء ... تجد الأول فيمن اعتزله العالم من شرار المجرمين، وأخلاق الشياطين الإنسيّة الذين لا يَسَعهم الناس بعد أن انفصلوا من إنسانيتهم، وانحطوا انحطاطًا في أشدّ العنف؛ وتجد الثاني فيمن اعتزل هو العالم من خيار الأوّابين، والشهداء الذين لا يَسْعون الناس بعد أن اتصلوا بإنسانيتهم الكاملة؛ فارتفعوا عن الخلق ارتفاعًا في أرقّ الرحمة!

الحب بعض الإيمان: وكما أن الطريق إلى الجنة من الإيمان بكل قوى النفس؛ فإن الطريق إلى الحب من قوة لا تنقص عن الإيمان إلا قليلًا؛ والخُطوة التي تقطع مسافة قصيرة إلى القلب، تقطع مسافة طويلة إلى السماء!

وكما ينشأ الفكر أحيانًا من عمل العقل الإنساني إذا هو تحكم في الدين، يأتي البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب.

وتُرى ما هذا الشّبّه بين المرأة وبين السماء؟ أكانت المرأة في أصل الخلقة مادةً سماءٍ بدأت تتخلّق في الغيب، فحبسها الله في ضلع الرجل عقابًا لها، ثم عاقبها الثانية فأخرجها للرجل تنتظر إليه، كما ينظر السجين إلى سجنه ... ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرّتين؛ لتتعلّم هي بطبعها كيف تتجنّى على الرجل، وتعاقبه مرارًا لا تُعدّ؟

أيمكن أن يكون هذا الجمالُ الفَتان في المرأة الجميلة خلَاصةً سماءٍ من السماوات خُلقت عينين وخَدَين وشَفَتَين؛ تضحك أحيانًا بالنور، وتلتهب أحيانًا بالبرق، وتتفجر أحيانًا بالبرعد؟

لقد عرفنا أن في السماء جَنَّةً ونارًا، وأقسم لو صُعُرت الجنة، وجُعِلت أرضية ثلاث حياة رجلٍ من الناس، ثم عُجِلت له هذه الحياة الدنيا؛ لما كانت بمتاعها ولذاتها، وفنون الجمال فيها إلا المرأة التي يُحِبُّها! ... أما الجحيم فلا أراني في حاجة إلى برهان على أنها صُعُرت وتجزأت، واندفقت على الأرض شَعَلًا في أسماء من أسماء النساء!

لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة، بل لا أدري كيف أفهمها؛ فمن حيثما نظرتُ إليها لا أراها تبتدئ إلا من فوق العقل، فأنظر إليها ساكتًا على أنها هي لا تنتظر فيّ إلا متكلمة.

...

يا ملوّن السماء، والوجوه الجميلة؛ يا مُصوّر الرّوعة والحب، يا مُبدع هذه المعاني الظاهرة إبداعًا، جعلها لدقّتها كأنها لم تظهر ... يا مُوجد القلب كما هو لئملأه السماء إيمانًا، والجمال حُبًا، والمعاني فِكْرًا منهما معًا ...

ويا خالق الإنسانية العالية في الإنسان الكامل من إيمانه، وحبّه، وفكره ...

... نعرف هذه السماء بما وبيعتُ للإيمان، وهذه الطبيعة بما رَحِبْتُ للفكر؛ فهل المرأة وحدها هي التي للحب؟

تباركت إذ جعلت ما وراء الطبيعة فوق الفكر مهما سما، وجعلت الطبيعة حول الفكر مهما اتسع، وأنزلت المرأة بين المنزلتين مهما كانت!

إن من النساء ما يُفهم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن يمتنع، ومن النساء ما يُفهم ثم يسفل في معانيه الخسيسة إلى أن يُبتذل!

إن من المرأة ما يُحب إلى أن يلتحق بالإيمان، ومن المرأة ما يُكره إلى أن يلتحق بالكفر!

...

من المرأة حُلُوٌ لذيذ يُؤكل منه بلا شبع، ومن المرأة مُرٌّ كريحه يشبع منه بلا أكل!

هوامش

(١) السن: الريشة. والنصاب: اليد التي تمسكها.

(٢) أظهر شعاعه فيه.

(٣) استعير له الجرح؛ لأنه أحمر يترقرق كالدم.

(٤) داورته وقلبته.

(٥) هي فتيلة السراج المشتعلة، سمينا بها خيوط النور المنبثقة في المصباح الكهربائي، وما تجري فيه، ترجمة الكلمة "Duill".

(٦) قطع البرق، جمع شقيقة.

(٧) خطرت ببالي، والذي هو في الصدر: القلب.

(٨) طرق القلب وشقوقه.

(٩) المطر متى سح تتابع حتى تنقشع السحابة أو تتساير.

(١٠) لا نطيل في وصفها هنا؛ فهي التي وصفناها في «حديث القمر».

(١١) أهمل قلبه، وتركه لا يثبت فيه شيء منها.

الفصل الثاني

النجمة الهاوية

طائفة من الخواطر في طائفة من النساء

وترقرق السحاب فإذا هو كنضج الدم، ١ وإذا هو يفور فوراً؛ ٢ فبان كأنما يتدفق من طعنة أرى دمها، ولا أرى موضعها؛ لأن هذا الشلال الأحمر يتفجر منها.

ورأيتها هي طالعة كالشمس حين تغرب حمرة يتغالب طرّفا الليل والنهار عليها؛ ففيها أواخرُ النور، وأوائلُ الظلمة، وسوادُها يمشي في بياضها ٣ ...

قلتُ يوماً في صفة إحدى القصائد البديعة: إنها فنٌّ من الشعر؛ وفي إحدى الصور المُحكّمة: إنها فن من التصوير؛ وفي تلك الجميلة: إنها فنٌّ من المرأة! أما الآن فقد عرفنا أن اصفرارَ الشمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها.

وتقول العرب: امرأةٌ مَجْلُوءةٌ؛ ويفسرون ذلك بأنك إذا رامقت فيها الطرفَ؛ جال؛ يَعْنُونَ أنها من جمالها ذاتُ شعاع، فيجول الطرفُ فيها لأجل شعاعها وبريقها؛ أفلا يجوز لنا أن نزيد في هذه اللغة: وامرأةٌ صَدْنَة، ونفسرها بأنها هي التي إذا اتّصلتُ بها تركتُ مادةَ الصدا على روحك اللامع؛ لأنها كهذا الصدا طيبت على طينتها؟ه

...

لست أريد أن أصنع في هذا الفصل كتابة؛ حتى لا أدير الكلام على شيء، فقد مُسِخَتْ تلك النفسُ في نفسي فخلصتُ لي منها هذه الكلمة الجميلة: «تتمُّ آمالنا حين لا نؤمل»، ولكني مرسلٌ مطرة سحابي تهطلُ ما هطلتُ؛ فالمرأة الأولى أضاعت على الرجل جنّته، ومن نسلها نساءٌ يُضَيِّعن على الرجل الجنة وخیالها! ولو استطاعت الأرض أن تفرَّ من تحت قدمي مخلوق براءةً منه، لكان أول من تنخزل تحت رجليه ٦ واحدة من هذا النوع!

ملُحِ الله لا يحلو أبداً؛ فماذا تصنع في نفسٍ لو سالت لكانت بُحيرة؟

سرورُك من الصديق الطيب لا يكلفك إلا أن تستمتع به، وأنت لا تخسر فيه إذا زال إلا أنه زال؛ فإذا لم يكن الطيب في نفسه طيباً كذلك في أثره فهو الخبيث!

بعضُ النساء تنقصُ بها الحزن، وبعضهن تُغيّرُ بها الحزن، وبعضهن ... تُتمُّ بها حزنك!

لا يَنقُذُ الشجرُ الأخضر إلا من أشد النار سَعيراً، وتَنقُذُ المرأة الجميلة حتى من أشعة وهمها!

في قلب الرجل ألف باب، يدخل منها كل يوم ألف شيء؛ ولكن حين تدخل المرأة من أحدها لا ترضى إلا أن تغلقها كلها!

النساء مَنجَمُ السعادة؛ فرجلٌ واحد لا يكاد يمدُّ يده حتّى يضعها على الجوهرة المشرقة؛ ومائة رجل يُغْرِيلون حصي المرأة وترابها ليجدوا فيها شذرة تلمع!

قال لي زوجٌ عن امرأته: أنا وهي ينتج منهما أنا بلا أنا!

لم يخلق الله أحداً مكروهاً قط، وإنما نبغضُ من الناس الصورَ المكروهة التي يُحْدِثُونها: فعملك شخصُك الحقيقي!

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء، ثم تثور يوماً، فلا تدل ثورتها على شيء إلا كما يدل المُسْتَنَفَعُ على أن الوحل في قاعه؛ فأغضب المرأة تعرفها!

الحبيب من تلتهمه بكل حواسك، فإذا رأيته فقد رأيته، وسمعته، وذقته، ولمسته، وشممته؛ والبغيض من تقيئه من حواسك ...

في المرأة حقيقة، ولكنها لن تعرفها إلا بفكر رجل، فالكاملة من لا تسيء أحداً، وإلا أساءت إلى حقيقتها!

كل ما يخطرُ ببالك فقدّرْ معه ضِدّه إذا كنت تفكر في الحب والبغض!

يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم، أن تُعلّمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها!

الخبثاثة للخبثين، قيل لأرض حطيبة: ٧ من تشتهين أن يكون زوجك لو كنت امرأة؟ قالت: الفأس!

تجاورت شجرة من الحسك، ٨ وشجرة من الورد؛ فزَهت الوردة زَهْواً عاطراً بطبيعة العطر الذي في مادتها. فقالت لها الحسكة: ويحك! ما هذا الزَهْوَ الذي أفسدت به محلك من نفسي؟ قالت الوردة في كلام هو عطرٌ آخر: لا تتعبي نفسك في تحقيري، فلست أفهم لغة الشوك إلا إذا كان يُنبِت الورد!

قد يتغيّر الرجل في نظر امرأته حتى تقول له: يا أنت الأول، يا أنت الثاني! ٩ ...

... ولكني عرفت رجلاً قال لامرأته: يا أنت الخامسة والخمسين!

قيل لحية سامة: أكان يسرك لو خلقت امرأة؟ قالت: فأنا امرأة غير أن سمي في الناب، وسمها في لسانها!

ما ألأم الشجرة التي لو نطقت لشتّت من يسقيها!

لا يفكر الرجل فيما لم يحدث على اعتبار أنه حادث، إلا في شينين: المصيبة التي يكرهاها، والمرأة التي يحبها!

قال رجلٌ حكيم: إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه، فاطلب له من عُذْرٍ واحد إلى سبعين عُذْراً، فإن لم تجدْ فقل: ولعلّ له عُذْراً لا أعرفه! وقالت امرأةٌ حكيمة: إذا بلغك عن رجلٍ ما تكرهين فاطلبي له من ذنبٍ إلى سبعين ذنباً، ثم قولي: ولعل له ذنباً لا أعرفها ... زوّجوا الحكمتين أيها الناس!

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ عقل بعض النساء مثل وجوههن المزوّرة: تحته ما تحته، وليس عليه إلا «غبار» من العقل!

من المستحيل أن تُشكر النارُ وإنْ كان شرُّها ينطفئ كحَبِّب الكأس، ومن المستحيل أن تُلذَّع الخمرُ وإنْ كان حَبِّبها يموِّجُ موج الشرر، ولكن من الممكن أن تجد في امرأة واحدة لَذْع النار، وإسكار الخمر معاً، وهي شيطانة النساء، يجتمع ممكُنُها من مستحيلين!

شرُّ النساء عندك وعندي هي التي تجعلك تنتبه إلى ما في النساء من الشر!

قال بعضهم لزاهدٍ عظيم: إني رأيْتُكَ الليلةَ تمشي في الجنة؛ فقال له الزاهد: ويحك أَمَا وجد الشيطان أحداً يسخرُ منه غيري وغيرك؟ وقال رجلٌ لامرأة: إني رأيْتُكَ الليلةَ في الجنة؛ فقالت له: ويحك! تقولها من غير أن تشكر فضلي عليك مع أني أدخلتك الجنة!

أشأم النساء على نفسها من لا تُحبُّ ولا تُبغض، وأشأمهن على الناس من إذا عدَّت مُبغضيتها لا تعدُّ إلا الذين أحبُّوها!

يا هذه لا أدري ما تقولين؛ ولكنَّ الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتَّسختْ كان كلامها في حاجة إلى أن يُغسل بالماء والصابون، وهيهات!

يا مَنْ على الحب ينسانا ونذكرُهُ

لسوفَ تذكرنا يوماً وننساكا

إنَّ الظلامَ الذي يَجْلوك يا قمر

له صباحٌ متى تُدرِّكه أخفاكا

هوامش

(١) خروج الدم وسيلانه.

(٢) غضبه.

(٣) انظر كتاب «رسائل الأحزان».

(٤) أرسلت فيها النظر.

(٥) أي جبلت على جبلتها وطبعها، والصدأ أشبه بالطينة في معدنه.

(٦) أي تتقطع وتتخسف.

(٧) أي كثيرة الحطب؛ لخبث تربتها.

(٨) الحسك: هو الشوك، وسُميت به شجرته مجازاً.

(٩) يريد تغيير الطباع، وفتور النفس، وما أشبه ذلك.

الفصل الثالث

السجين

وتغيم سحابي هذه المرة، وأطبقت في حواشيه سوداء على سوداء ١ كأنه يجمع هم قلب بات الألم من عناصر حياته.

رأيت في سوائه ٢ رجلاً أليس الدلة وسيم الخسف، ٣ وقد انتصب كالجدع المشتعل، وله فروع من الدخان، وهو هذا السجين الذي أقص خبره.

ألا إنما الإنسان من الأقدار كالنبات بين الفأس التي تحرث له، والمُنجل الذي يحصد فيه؛ وما هذه الدنيا إلا هذان، فلا يحسب العود الطالع أنه شيء غير العود المقطوع!

كنت يوماً في محكمة كذا، فجاء الجند بسجين قروي كالمارد، يزعمون أنه سبّع من سباع القرى، وشيطان من شياطين الليل، ٤ وقد غلوا يديه بسلسلة من الحديد لعل فقار ظهره أصلب منها.

خُلق في هيئة مُستصعبة شديدة المراس كالجمرة المتقدة، ولكن الحياة ما زالت به من نكد إلى أنكد منه حتى طمرته في رمادها؛ لأن له عثرة هو عاثرها يوماً.

وخلق في مزاجه وعصبه من المادة المشتعلة، حتى إذا التهب رأت منه الحياة شكلها القوي الجميل في الرجل المشبوب يُرسل فروعُه النارية على ما حوله: فإذا خمد رأى منه الموت شكله العنيف الجميل في الجمرة العلية الذابلة حين تمر أنفاس الهواء عليها.

رجل طوال إذا انتصب والناس وقوف حوله رأيتهم معه أشبه بهم قعوداً، مما يفرعهم من طوله، وامتداد قامته، مجدول الذراعين، مشبوح العظام قد تباعد منكباؤه، وترامى بينهما صدر مصفح، كل ثدي من ثدييه يجمع قوة أسد.

وهو في توثيق جسمه، وتفرع بعضه من بعض كأنه شجرة رجال: كل فرع منها بطل مُنكر؛ وهو في إحكام تركيبه، واندماج بعضه في بعض كأنه تمثال أفرغ من حديد؛ فتوزعت فيه الكتل هنا وهناك، وكل ما فيه من الإجمال والتفصيل أنه جسم آدمي يمثل للأعين ناموس «بقاء الأنسب».

وجاءوا به والناس مُتصِفون عليه من ازدحامهم ينثني بعضهم على بعض لينظروا إلى الرجل الكامل، بل الذي نقص حين كمل، وهو مطل عليهم ... كأنه عبارة مُبهمة في صحيفة! وكأنهم من حوله شروح وتفسير رُقمت على حاشيتها بخط دقيق، وقف كالشيء الغامض يروعه بغموضه أضعاف ما يعجبهم بروعه! وكانوا كالشعاع: خيطاً يظهر من خيط؛ وكان كالظلمة: نسيجاً من قطعة واحدة؛ وأحسبه لو صاح بهم صيحة البأس لسقطت قلوبهم من علانقها سقوط أوراق الشجر في قاصف من الريح، وكان ما بينهم وبينه في الروعة والقوة كالذي تقيسه بين ألف متر انخسفت تحت الأرض، وألف متر انبثقت فوقها؛ فالبعد بين طرفيهما مضاعف كل منهما؛ وما زالت سنة الله أن تتضاعف الفروق دائماً بين الأشياء التي لا يمكن أن تتفق، حتى لا يمكن أبداً أن تتفق!

أما أنا فما يعجبني شيء ما تعجبني القوة السليمة في رجل شجاع، والضعف السليم في امرأة جميلة، وكما أنظر أكثر الوقت بالنظر الساكن المُفكر، أحب أن أنظر أحياناً بمثل البرق المتطابر من عيني أسد مفترس، أو الازورار الزائغ في عيني جواد جموح، وخير الناس في رأيي من غسّله تاريخ أهله بضوء السماء، وضوء السيوف معاً. ٦

وكان الرجلُ يظهر كأنما هو لا يُمسكه الحديدُ الذي يَعَضُّ على يديه؛ بل ذَنْبُهُ الذي يَعَضُّ على قلبه: ولعله قُتِلَ ضعيفًا مظلومًا، فتحوَّلَ ضعفُ القتل، وذِلَّتُهُ، ومسكنتُهُ إلى أرواحٍ منتقمةٍ من كبريائه، تدسُّ في ضميره عنصرَ الجبن البغيض إليه، وتربط الروحَ الميتة إلى روحه؛ فلا ينزع ظلمتها عن قلبه كل ما في النهار من الضوء؛ ولا يجد النورَ إلا في الإقرار والندم؛ فيسكن إليهما.

وتبيَّنَتْه فرأيته ساكنًا سكونَ الاستهزاء؛ كأنه على ثقة مما خفي عنه، تشبه ثقته بما وَصَحَ له؛ أو لتعاسيته أَخْفَقَ أكثرَ مما فاز. والإنسان متى كثُرَ إخفاقه صارت الخيبةُ في الأعمال هي الخطة التي يبني عليها؛ أو لا هذه ولا تلك، ولكنها الشجاعةُ تجعل المطمئنَّ إلى غاية الحياة لا يبالي بكل وسائل هذه الغاية المحتومة!

وقيل: إنه بَعْدَ أَنْ غمس يده في الدم طار على وجهه تَلَفُظُهُ الأرضُ من جهة إلى جهة، حتى أسلمته يد النِّقمة إلى يد العدل!

...

ترى لو سألنا الوحشَ حين يفترس إنسانًا: ماذا وقع في نفسك منه حتى تُرْتَبَ به، وعدوتَ عليه؟ أكان يقول — لو أنطقه الله — إلا أنه أبصر في هذا المخلوق وحشًا ماكِرًا خبيثًا إنَّ لا يكن في دِقَّةِ ناب الثعبان، فهو في خطرٍ سَمِّه؛ وإنه لو رأى عليه سَمَمَتَ إنسان، وأبصر له نظرة إنسان، وأحسَّ منه قلبَ إنسان للجأ من وحشيته إلى الإنسانية التي فيه؛ إذ الإنسانية هي حَرَمُ الأمن الإلهي الذي تُوضَعُ عنده كلُّ الأسلحة، حتى أسلحة الوحوش، وإذ الإنسان هو محرابها الذي تُصرَعُ عنده كل القوى، حتى قوى الطبيعة.

كأنما كَبُرَتْ الإنسانية حتى عن أن تكون شيئًا إنسانيًّا؛ فما هي فيمن تَرَى ممن حَشَوْهُم ناسٌ، وحشو نفوسهم بهائم؟ إنما الإنسانية هناك، بعد أن تخرج بنفسك من حدود الشهوات الأرضية، وترفعها فوق هذه الطبيعة، وبعد أن تُعاني في شق طبقات النفس الحريصة طبقًا عن طبق، مثل الذي يعانيه من يحفر في أصلب أحجار الأرض إلى غُورٍ بعيد!

فهناك لا تجد الأشياء، بل معانيها، وأسرارها، ولا الحوادث، بل أسبابها، وأقدارها، ولا نيران النفس، بل أضواءها وأنوارها؛ فترجع من ثَمَّ وفيك الناموس الذي يُنبِئُ الخضرة من العود المَغِيرِ،^٧ ويُخرج النار من الشجر المَخْضَرِّ، ويجعلك لبحر هذا الأزل كأنك مكانٌ من البر.

...

كان السجين في بَهِو المحكمة، فصعد به الجند إلى غرفة «قاضي الإحالة»^٨، ووقفوه ساعة على مَظَلٍّ بين يديه فناءً واسع أسفل منه، فتحوَّلَ الناس إلى هذا الفناء، وتحوَّلت معهم، وكان البطل يلوح كطرف المُنْدَنَةِ؛ فما هو إلا أن أدار عينيه في الناس حتى استقر بهما على ناحية، فنظرتُ حيث نظر؛ فإذا داءُ قلبه، وقلب كل من رأى ...

... سبت نساء، وفتى، وطفلان، ورضيع؛ فأما واحدة فأُمُّه، وأما الثانية فزَوْجُها، والباقيات أخواته، والفتى فرع أبيه،^٩ ثم الطفلان والرضيع أولاده، وقد جاءوا يودِّعونَه، ويستودعونَه؛ وحسبوا أن ليس بين رَجُلِهِم وبين الموت إلا هذا القاضي الذي مَثَلَ بِيابِه، فطرح الموتُ ظِلَّ فكره على وجوههم، وأخذ الرعب مأخذه فيهم؛ فما كانوا إلا كما يجتمع أهل الميت حول الميت.

رأيت أُمَّه المَفْجُوعَة جالسة لا تحملها رجلاها، وعلى صدرها ذلك الرضيع تَضُمُّه كأنه قطعة من قلبها رجعت إليه، وتشدُّ عليه بيديها شِدَّةَ الجزع والحنان كما لو كانت تحسبه صلة بينها وبين ابنها، تنقل هذه الشِدَّةَ بعينها إليه كما تنقل الكهرباء حركة المتحرك، وقد انطلقت ذُموعها، وفي كل نظرة إلى نكبة وحيدها مادةٌ جديدة للبكاء!

وهي تنحني على قلبها حتى يُداني وجهها الأرض، كأنها شعرت به ينكسر؛ فمالت ليلتئم صدع منه على صدع، ثم تعود فتعتدل؛ فيكاد ينشق قلبها فتضغطه بانحناء أخرى؛ وهي في كل ذلك مُرسلةً عينيها تُمطر مطرًا، وكانت حين تنكف دمعها، ١٠ وتُنحّيه عن خديها، يتساقط من فروج أصابعها كأنه عدد أيام شقاتها!

وحسب الرضيع أنّ هذه الحركة هَذَّة ١١ من أمّه لينام، فنام هنيئًا على صدرها، وأدفاؤه غليانُ هذا الصدر فضاعف لذة أحلامه! وإنما هو طفلٌ سَمَويٌّ لا يزال مس يد الله على جلده الرطب، فلو زَفَرَتْ حوله جهنم فأحرقته لكفنته نسمة من نسيمات الجنة؛ وبها سعادة من يستطيع بطبيعته أن ينقطع من وسائل نفسه إلى وسائل الله! ١٢

وأما زوجة الرجل — وهي شابةٌ جَزَلَةٌ الخلق، ناضرة الصَّبَا، تركها الحزنُ كالمراة المُهملة: تدل أنوارُ بريقها على مواضع الصدا منها؛ فكانت واقفة تحمل على رأسها بُرْمَةً أعدت فيها ما تعرف أنّ سيدها يشتهيهِ من طعامه، كأنها تريد أن تجعل من هذا الطعام الذي يُحبه رسالةً من الحب بين نفسها ونفسه تُرسلها إليه في سجنه! ولما استقرت عينه عليها، أرسلت كلَّ عواطفها في مجاري دمعها، وقد أيقنت أنه قُطِع بها دون عمادها، وزوجها، ووالد ابنها، وكنزها الذهبي الذي لا تملك غيره؛ فكانت تبكي لكل معنى من هذه المعاني بكاءً بعينه، وتبكي على قدر وفائها الذي لا حدَّ له، وحبها الذي لا صبرَ معه، ومصبيتها التي لا سبب فيها من أسباب العزاء؛ وكل نظراتها كانت تقول لزوجها: لك ما أبكي. ١٣

وأحاط بها أخواته الأربع، صفر الوجوه، ساهمات الخدود، ذابلات الأعين! كأنما تدلّين إلى الأرض من مشنقة! والبنات قطعة من أمها، ولكنها في الحزن على أبيها أو أخيها بعدة أمهات؛ فهل تُراه لا يستوفي في بطن أمها إلا نصف حياتها كهينتها في الدنيا ... ويبقى النصف الآخر في أخيها، فإن مرض خامرها نصفُ الداء، وإن مات وقع عليها نصف الموت، ولا يكون حزنها عليه إلا هذة في حياتها لا يمكن أن تبني؟

أما أخو السجين فوق ناحية عن النساء، وجعل يبكي، ويغصير عينيهِ؛ ولا أدري إن كانت الفطرة هي التي أبعثته عنهن حتى لا يشبههن بوجه من الشبه، ولو كان دقيقًا كهذه الخيوط من الدمع؟ أم هو أنتحى جانبًا كيلا تتصل به عدوى الضعف، وليستطيع أن يبكي على أعين الرجال بكاءً رجل في دمه شيء من القوة؟ أم هو انتبذ مكانه ليتكلم مع آلامه؛ فإن الآلام تتكلم، ولكن بإحساسنا؟ وكان له من أوجاع قلبه حديث طويل.

وأما الولدان فريض أحدهما في الأرض، ووقف الآخر؛ لأنه أكبر منه قليلًا، وكلاهما ضامرُ الوجه، مُتَقَبِضٌ، منكسرٌ من هَوَل ما يرى، وكانت عيونهما الحائرة تدل على أنهما بازاء حالة غير مفهومة، فأبوهما حي لم يموت، وعيونهما مكتحلة بعينيهِ، وليس بينهما وبينه إلا ارتفاع شجرة ... فلم لا يصلان إليه، أو يصل إليهما؟ وعلام هذه المناحة ولا ميت؟ وفيهم هذا الجمع ولا معركة؟

أخذوا يدرسان الدنيا كلها في مُعضلتها الأولى من حيث لا يفهمان شيئًا، وبدأ العدل الإنساني الرحيم يُخشِّن صدرهما ليعلما ذات يوم معنى الظلم الذي يكون مرة باعًا على العدل، ويكون مرة إياه!

ألا ويحك أينها الإنسانية ظالمة أو مظلومة! إنَّ أمامك من هذين الطفلين الموتورين التي تصوير قد نقلنا هذه الصورة، وستحفظانها إلى يوم ما!

صورة بشعة على تلوينها؛ إذ لا سواد فيها إلا من الخطوط، ولا بياض إلا من الدموع، ولا صُفرة إلا من الوجوه، ولا حُمْرة إلا من لهب القلب، وسميضي كل شيء لسبيله؛ فينسى ولا تُنسى؛ لأنها مادة علمية مصوّرة، كرسوم تعليمي في جغرافيا الجريمة!

هي اليوم صورة طفل فهي للحفظ، وغداً صورة شاب فهي للعلم، وبعد غد صورة رجل فهي ... للعمل.

...

وكان السجين كالميت: تراه تحت أعين أهله وهو في عالم آخر، وبين أيديهم وكأنه حسرة بعد أمل ضاع! وكان كلامهم سَمْعَ أذنيه، ١٤ ولكنه من معنى ما يحب على بعد ما بينه وبين المستحيل؛ ابتلاه الله بالجريمة، ثم ابتلاه بالقصاص، ثم تمم عليهما بمصيبة في مقدار عذابهما معًا، وهي رؤية أهله جميعًا في حالة لا يملك فيها قدرة، ولا صبرًا!

إنما يُمسبك الإنسان قوتان: قدرة يمضي بها؛ فيدرك فيطمئن، أو صبر يقعد به فيعجز فيطمئن؛ ولكنه متى امتحن بشيء لا يقدر عليه، وهو مع ذلك لا يصبر عنه، فقد وضعه الله من نعمة في حالة لا إنسانية، ولا وحشية، ولا دونهما، ولا فوقهما؛ إذ يسلط عليه كل القوى التي في داخله تدفعه بأشد العنف إلى القوى المحيطة به، ويُغري المحيطة به ترميه إلى التي في داخله؛ فما إن يزال مرتطمًا بين هذه وتلك، وكأنه لشدة وقعهما يُحطم تحطيمًا بين مطرقتين!

وهذه البلية من العذاب لا تتفق إلا في أشد ما يكره الإنسان حين لا يجد الإنسان منه مفرًا، ولا يُطيق عليه مفرًا، وفي أشد ما يحب حين لا يقدر إلى حد اليأس، ولا يصبر إلى حد الجنون، وأحسب ما في الأرض مننحر قط أزهرق روحه — إن لم يكن مجنونًا — إلا وهو في إحدى هاتين الحالتين؛ فإن وجدت من يُنبئه الله على حالة منهما وجدته كالبقية من الحريق: إن لم تكن احترقت وذهبت، فقد احترقت وبقيت!

...

أجرم السجين فأخذ بذنبه، فما ذنوب هؤلاء جميعًا؟ أهي إحدى الحقائق العليا الغامضة التي من أجل غموضها، واستبهاجها حكمتها يقول الحائرون: «كل شيء هو كل شيء!» ويقول المنكرون: «لا شيء في كل شيء!» ويقول المؤمنون: «كل شيء فيه شيء»؟

أم هي الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها، وإن أصبح الناس لا يفهمونها؛ إذ لا تحتاج إلى فهم، وإنما هم موكلون بما خفي ودق، كدأب هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر في دقيق المباحث، وعويص التراكيب، ثم لا ينتهون من نتائجها إلا إلى النواميس المكشوفة انكشاف النور لكل ذي عين تبصر!

أهي الحقيقة السهلة التي تجزأت من أجلها آية الله، فيقول المنكرون: «لا علم!» ويقول الحائرون: «لا علم لنا!» ويقول المؤمنون: «لا علم لنا إلا ما علمتنا!» ١٥

ألا أيها القلب الإنساني المعجز؛ إن أيامك كلها مُضي في سبيل الموت الأول، كما هي مُضي في سبيل الحياة الأخرى؛ فأنت تسير في طريقين معًا، وهذه هي معجزتك التي لا تفهم! ١٦

ونحن من ظلام الدنيا، ومن بحثنا عن الحكمة الإلهية الصريحة بوسائلنا الإنسانية العاجزة، كالذي يبغى أن تطلع عليه الشمس في ليله، ويبقى له مع ذلك ظلام الليل! يريد مُستحيلين لا مستحيلًا واحدًا، وهذا هو عقلنا الذي لا يُعقل!

لو أراد الله بك خيرًا أيها القلب المسكين لما جعل شقاءك يُربى فيك تربية كما تُربى أنت في الإنسان، وكما يُربى الإنسان في الحياة؛ فالحب، والرحمة، والشفقة، والصدقة، وكل المعاني التي هي روابط الإنسانية في اشتباكها، هذه كلها هي وسائل مسرتك في حالة، وهي بأعيانها أسباب عذابك في حالة أخرى!

جُذُورِ اسْتَسَرَّ بِهَا الْغَيْبِ، ١٧ وفي أيدينا فروغها، وأوراقها، وثمراتها: تلك هي شجرة الحياة، فلنا حلوها ومرها، وما يفيء من ظلها، وما ينجس، ونشدب ١٨ منهما؛ فتنمو وتزيد، وتغير من أشكالها، ونلوي أو نكسر من فروعها ما شئنا، ونترك من ثمرها ما ينضج إلى أن ينضج، أو نتناوله فجأ لا يساغ ولا يطعم، أما أن نجعل مرها حلوا، أو نرسل المادة الحلوة بأيدينا في جذور الفروع المرة التي لا تؤتي ثمرها إلا عللاً، ومصائب ونكبات وموتاً — فهذا ما لا سبيل إليه، ولا يُغني فيه غناء، ولا تبلغ من حيلة، إلا إذا استطعنا أن نطفئ الفرع الأحمر من النار؛ فيتحول في أيدينا إلى شيء آخر غير الفرع الأسود من الفحم!

تأتي النعمة فتدني الأقدار من يدك فرع الثمر الحلو، وأنت لا ترى جذره، ولا تملكه، ثم تتحول فإذا يدك على فرع الثمر المر، وأنت كذلك لا ترى ولا تملك؛ ألا فاعلم أن الإيمان هو الثقة بأن الفرعين كليهما يصلانك بالله، فالحلو فرع عبادته بالحمد والشكر، وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحس. والمر فرع عبادته بالصبر والرضا، وهو الأحلى حين تذوقه بالروح!

القلب الإنساني ميدانٌ تقتتل فيه القوى الأرضية والسموية، فلا بد في النصر والخذلان جميعاً من الدم يذهب كله أو بعضه، والجراح تبرا أو لا تبرا، والآلام تنسى أو لا تنسى ...

لا بُدَّ؛ لا بدَّ؛ لا بدَّ!

...

وجاءت حافلة السجن فركبها السجين، ومضت تجرّها البغال طائعة منقادة، كما تنقاد إذا هي جرت مركبة ملك، وذهبت وما تحفل بشيء من الدنيا، وسياستها، وآدابها، وأحكامها ما تحفل بهذا السوط الدقيق المُسلط على ظهورها ... أما أهل الرجل فتهاكوا وراء العربية؛ فالشاب يخطف في غدوه مُنكراً؛ كأن قربه منها يوصل بعض أنفاس الحرية إلى أخيه، والنسوة يهتلكن في جريهن، وكلما أبعدت الحافلة علا صراخهن ليبلغ السجين منهن شيء ما، أما الطفلان وجدّتهما فوققوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم، ولكن نظرات الجدّة ارتمت إلى العربية، فلما غابت عنها ارتمت إلى السماء!

وأما الرضيع، هذا اليتيم في حياة أبيه، هذا المسكين الذي ابتدأ تاريخه بجريمة لا يد له فيها، هذا الضعيف الذي لا يزال جلده أرقّ ديباجة من ورق الزهر، ومع ذلك تدق فيه منذ الآن مسامير الفقر واليئس والضياح؛ أما الرضيع اليتيم المسكين الضعيف، فكان وحده بين هذه المصائب الماحقة دليلاً على الأمل الإنساني في رحمة الله، إذ فتح عينيه للنور وابتسم!

...

نَزَتْ كَيْدِي ١٩ لَمَّا رَأَيْتُ الْحَبَّ الْهَالِكَ يَسْتَنْفِضُ امْرَأَةَ السَّجِينِ، ويسوقها جامحة في عنان الغيظ تتراعى على وجهها.

كانت المرأة غريقة في بأسها، وكان شاطئ الأمل يفرُّ أمام عينيها فراراً؛ لأن بينها وبينه موجة دمعها.

وقد صدع الحب في قلبها صدعاً ليغرر فيه الشوكة المُستجدة من ألم الفراق لمن تحبه؛ تلك الشوكة التي ما نفذت قلباً؛ فاستقرت فيه إلا جعلت الحياة كلها معاني شائكة حتى تحطم أو تُنزع.

امرأة والهة، فيها نفسها المُعَذِّبة، وفي نفسها رُجلها المُعَذَّب، وبين هذين طفلها اليتيم الذي يقتضيها أن تظلَّ حانية عليه حُنُوً أبوين؛ فهي تجمع على قلبها عذابَ ثلاثة قلوب، وتتألم بنفسها الواحدة ألم الرثاء لزوجها الذي نزلت به العقوبة في جسمه وروحه، وألم الإشفاق على مجدها الذي نُصب على أعين الشامتين في موضع الذلة، وألم الرحمة لطفلها الذي بلغ سنَّ الهمِّ، وهو لا يزال في الثدي، ٢٠ وألم اللوعة لحياتها التي لم تعد الأيام تُناجيهما بغير لغة الدمع، وألم الأسى على شبابها الذي تساقطت آماله كما تحط الشجرة الخضراء أوراقها لتُجف!

ألا يا ماء البحر، ما أنت على أرض من الملح؛ فيماذا أصبحت زُعافاً ٢١ لا تحلو، ولا تُساع، ولا تُشرب؟ إنك لست على أرض من الملح، ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المُلحة!

...

ما الفراق إلا أن تشعر الأرواحُ المفارقةُ أجبتَها بمس الفناء؛ لأن أرواحاً أخرى فارقتها؛ ففي الموت يُمس وجودنا ليتحطم، وفي الفراق يمس ليلتوي، وكأنه الذي يقبض الروحَ في كفه حين موتها هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه!

وإنما الحبيب وجود حبيبه؛ لأن فيه عواطفه، فعند الفراق تُنزع قطعة من وجودنا؛ فنرجع باكين، ونجلس في كل مكان محزونين، كأن في القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت!

وكل ما فيه الحب فهو وحده الحياة؛ ولو كان صغيراً لا خطر له، ولو كان خسيساً لا قيمة له، كأن الحبيب يتخذ في وجودنا صورة معنوية من القلب! والقلب على صغره يخرج منه كل الدم، ويعود إليه كل الدم.

في الحب يتعلم القلب كيف يتألم بالمعاني التي يُجردها من أشخاصها المحبوبة، وكانت كامنة فيهم، وبالفراق يتعلم القلب كيف يتوجع بالمعاني التي يجردها هو من نفسه، وكانت كامنة فيه.

فترى العمرَ يتسلَّلُ يوماً فيوماً، ولا تشعر به، ولكن متى فارقتنا من نحبهم نبّه القلب فينا بعتة معنى الزمن الراحل، فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطايير عدة سنيين من الحياة.

وترى العمرَ يمتلئ شيئاً فشيئاً، ولا نحس الزيادة كيف تزيد: فإذا فارقتنا من نحبهم نبّه القلب فينا معنى الفراغ؛ فكان من الفراق على أكبادنا ظمأً كظماً السقاء الذي فرغ ماؤه فجفَّ، وكان الفراق جفافه.

ألا يا طائر الحب، إن لك إذا طرت جناحين؛ فما أقرب من هو على جناح الفراق ممن هو على جناح الهجر.

هوامش

(١) أي غيمة سوداء على غيمة أخرى.

(٢) أي في وسطه.

(٣) سامه الخسف وأسامه: أولاه الهوان والذل.

- (٤) أي لص فاتك، وهي كناية.
- (٥) الشبح: عرض العظام، وهو من علامة القوة والصلابة.
- (٦) يريد بهذا أن يكون من أجداده الأبطال والحكماء، وأهل العلم.
- (٧) الجاف من الشتاء.
- (٨) هو القاضي الذي يسمع القضية فإن رأى البراءة حكم بها وإلا أحال المجرم إلى محكمة الجنايات لتقضي في أمره.
- (٩) أخوه، وهي كناية.
- (١٠) النكف: أخذ الدمع عن الخد بالأصابع.
- (١١) هدهدت الأم ابنها: حرّكته لينام.
- (١٢) والعجيب أنه لا يستطيع ذلك إلا أصغر من في الإنسانية من أطفالها، وأعظم من فيها من أنبيائها!
- (١٣) أي أبكي لك وحدك لا لخاصة نفسي.
- (١٤) أي يصل إلى سمعه فيعيه.
- (١٥) في القرآن الكريم على لسان الملائكة يُخاطبون الله، عز وجل: قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، وهو قول الملائكة، فكيف بالناس؟
- (١٦) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها، ولهذه الحياة الدنيا واجباتها وأعمالها، وقلمًا أشبهت واحدة واحدة، والإنسان يعمل لهما معًا، ويريدهما معًا!
- (١٧) خفيت فيه.
- (١٨) تشذيب الشجر: تقطيع فروعه لينمو.
- (١٩) اضطربت في مكانها من الإشفاق ونحوه.
- (٢٠) أي الرضاع، وتقول: مات في الثدي، إذا مات رضيعًا.
- (٢١) الزعاف: الماء المر لا يُطاق شربه، وتأتيه المرارة من شدة الملوحة.

الفصل الرابع

الربطة ١

وأطلع في سحابي هذا الشيطان الذي تتلأأ على وجهه مَسْحَة مَلَك، ٢ فهو أخبث الشياطين؛ لأنه يسوق إلى الهلاك في نُزْهَة على شاطئ نهر الحياة.

هي فلانة؛ كانت امرأة فرنسية ربيطة لرجل عرفته قديمًا لأعرفها منه فأكتب عنها رأي العين، وأكون أفهم بها، وأدنى إلى حقيقتها؛ كما يريد عالم الطبيعة أن يكتب عن بركان يتأجج؛ فهو يدلف إليه ٣ يطأ على أرض كأن ترابها حريق ينتفس آخر أنفاسه!

ما ساح رجل في العمران، ولا ضرب في مَجْهَلٍ من الأرض، ولا ضلّ فيه تيه منها، ولا كشف للناس غمضًا من غموضها، ٤ ولا تطوح في بحر من أبحارها؛ إلا وأنت واجدٌ من مثل ذلك معاني في نفوس النساء؛ كأن هذه المرأة تمثال مُصْغَر خُلِقَ بمعانيه في مقابلة الأرض بمعانيها؛ فهي في روح الرجل إمّا الخصبُ أو الجدب، وهي له في الحياة إمّا المِلْحُ أو العذب، وهي منه العامرُ والخرابُ، ولكن في القلب!

...

كان صاحبنا فتى تَلَمَّعَ عليه غُرَّةُ الشباب، وقد رَقَّ حتى كاد يُخالط حدَّ الأنوثة، ولأن حتى قَارَبَ أن يفوت معنى الرجولة، وظَرُفَ حتى أوشك أن يكون إنسانًا تتفتح في روحه معاني الزهر، ولكنك إذا كنت رجلاً صحيحًا أَمَرَّتُهُ على عينيك كما تُمِرُّ كِتَابًا لا تريد أن تقرأه!

فقد تمدن في أوروبا، ولَبِثَ عن قومه ما شاء الله،^٥ ثم رجع إليهم كأن أمه لم تلذه، وكان أباه جدُّه الأعلى ... فبينه وبين أبيه هذا بضعة أجداد، منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو (الهر ...)، وأصبح يُحس أن كل شيء في هذا الاجتماع الشرقي مسلط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغلظة والجفاء، والعنت والأذى، كأنه (رحمه الله ...) ابن الضباب، فلما برز إلى هذه الشمس، وضحا في أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخَّر!

وكان من هؤلاء الفتيان الذين إذا تعلموا في أوروبا نَفَّوْا جهلهم بالعلم، ثم نفوا علمهم بجهل آخر ... ثم جاءوا كحرفي النفي: ما، ولا ... فليس منهم إلا التكذيب، والإنكار، والشك. وتراهم أظرف وأجمل وأزهى من فراشة الربيع، لا يريدون الحياة إلا أزهارًا، ولا يطبقونها إلا ربيعًا، وعلى أزهارهم وربيعهم، فليس لنا منهم إلا نقط من الألوان، وأصوات من الطين ... وأجسام ليس فيها رجالها!

...

سألت هذا الفتى مرة: أنت مصري؟

قال: ووطني صميم!

قلت: أفترى أنك تصلح في علمك وتهذيبك أن تكون مثلاً يتأسى بك نشء بلادك؟

قال: إني لأرجو ذلك.

قلت: وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية، ومساواتها بالرجل في الحرية المطلقة، وبَعَثَها من هذه القبور التي تسمى المنازل؟

قال: ذلك مذهبي!

قلت: فكيف ترى إذا اقتدى بك المصريون فأصْهروا إلى الأوروبيين، وخلطوا الشَّمْلَ بالشَّمْل؟

قال: لعلّ ذلك خير الطبّ لبلادنا، فلا مَعْدِل عنه في رأيي؛ إذ يَأْتِيها بالدم الجديد، ويُدمج في طباعها النظام والدقّة، ويبني البيوت من داخلها.

قلت: أحسنتَ بارك الله عليك؛ فكيف ترى إذا سألناك التسوية، وقلنا لك: دع أختك تَصْنُبْ إلى رجل أوروبي، وتتزوج منه إجارة ... وتأت به إلى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك! ثم لتفعل كل امرأة مصرية فعلها، فيكون لكم أوروبيات، ويقوم عليهن أوروبيون ...؟

قال: أعوذ بالله!

قلت: فعل الله بك وفعل! أفيلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنة الله إلا إذا رأيتها ملء مملكة، ولا تعرف حق وطنك فيك إلا حين تراه غريباً منقطعاً، لا حق له في واحد من أهله، ولا تدرك واجب التضحية ببلداتك وشهوات نفسك إلا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت في مثل حال الذبيحة تَدَحَّضُ برجلها تحت سكين الذابح؟

قال: فما أنا وأمثالي إلا شذوذ من القاعدة التي يجب أن تبقى أبداً قاعدة ...

قلت: فعليكم غضبُ القاعدة، ومَقْتُها وسَخَطُها، والله لأن تُفْعَ البلاد فيكم جميعاً، وتستركم بالقبور رمة بعد رمة، خيرٌ من أن تتقلد منكم بلية الحياة في اختلاط الأنساب، وارتداد الأسماء العربية عن دينها، وكساد النساء الشرقيات، وتخنت الرجال الشرقيين، وتُدَسَّس هذه العروق الفاحشة اللئيمة في ذرية الوطن.

قال: فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها؟

قلت: وكم من امرأة إفرنجية هي كَيَّةٌ على قفا صاحبها؟ ...؟

قال: فماذا نصنع ونساونا جاهلات لا صبر عليهن؟

قلت: أفترهق روحك إذا مرضت أم تَطْبُ لمرضك في أناة وصبر؟ وهل تفرّ من وطنك إذا ابتلاك بتضحية، أم تثبت وتتجلد؟ ثم ماذا أفدنا من علومكم إذا لم يحمل كلُّ عالم منكم جاهلة منهن؛ فيعلمها، ويتقها، ويُخلصها إخلاصَ الذهب الصافي، ويربح ثواب الوطن فيها؟ وإذا كنتم تهملون نساء بلادكم؛ لأنهن جاهلات، فحدّثني أفلا يزيدن ذلك جهلاً وضياعاً، ويضاعف مصيبة البلاد فيهن وفيكم، ويكون تركهن الذي قد يُسْتَصْلَح سبباً لِمَا وراءه من الفساد الذي لا صلاح له؟

وهل ترون المرأة الوطنية منكم إلا كالزهرة: نضرتها في غصونها وأوراقها، فإذا طرحتها غصونها عمل مُنْبُتها الاجتماعي فيها — وهو التراب — حين تتصل به عكس ما كان يعمل حين لم يكن يصل إليها من فروعها، وأوراقها غذاء يحمل روح الماء، وروح الشمس؟

أما والله إنكم فئة لا تُعَدُّ إلا في مصائب وطنها، وإنكم لكالأجنبي، ما دام أحدكم لا يَصِلُ أُمومة أولاده بتاريخ أمه، وإنكم لكالغاصب، ما دمتم تغصبون حتى نساء الوطن في رجال الوطن، وإنكم لكالعدو، ما دام كل واحد منكم حرباً على بيت ... ألا فدعونا من

الجاهلين، فقد يكون من بعض عُذْرهم الجهل، ومن المتلصّصين، فمن عذرهم الحاجة، ومن المُفسدين، فمن عذرهم سوء التربية، ومن الساقطين، فعذرهم ضعفُ النفس، ومن الخاملين، فعذرهم التُّرك والإهمال، ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى، فكلها مُسوغةٌ أَعْذَرُها المحمّولة على مَحاملها، وكلها أقرب إلى الدُّهْماء منها إلى المتعلمين، وإلى أخلاط الناس منها إلى الخاصة، وإلى السفلة منها إلى العُلّية ... ولكن ما عذرکم أنتم عن شهوات أنفسكم، وإيثاركم هذه الشهوات، واستهتاركم في هذه الأثرة؛ يعجز أحدكم أن يَكسر جِمَاحَ نفسه؛ فيجني على نفس من نساء وطنه، هي التي زهد فيها، واستبدل منها، وعلى نفوس من أبناء وطنه! هم الذين سيُعقِبهم من ذريته، ويأتي بهم للبلاد أجسامًا غابت قلوبها، ونفوسًا بردت دماؤها؛ ينزِعُهم العِرْقُ الأجنبي من أمهاتهم اللائي ولَدَنُهم إذا حَمِي دَمُ البلاد لبعض أغراضها، ويكونون في أمراضها من أسباب موتها، وفي صَحَّتْها من أسباب أمراضها!

ما لكم تَنزِلون أنفسكم منزلةَ الطفل البكر من أهله: ليس له إلا حُظوظه وشهواته؛ مسوِّغًا كل ما يقترحه عليهم؛ لأنه هو كان اقتراحهم على الله؛ محمولًا على قلوبهم؛ لأنه بعض قلوبهم؛ يُفسد المتاع، ويحطّم الأنبة، وتنزو به النعمة نَزْوَتها؛ فتجعل نصف عقله جُنُونًا، ونصف أدبه حُمَقًا، ونصف المنفعة به ضررًا، ونصف ظُرفه عَنَتًا، ونصف لينه مشقة؛ ويكون خيرُه نصف الخير، أما شرُه فشر اثنين؛ فهلا كنتم من أهل بلادكم كالأب من أولاده: يرى حقَّ صَعْفهم أكبر من الحق الذي لِقَوْتَه، وواجبَ مرضهم فوق الواجب لصحتِه؛ فهو يبذل سعة نفسه في ضيق أنفسهم، ويحملهم صغارًا ليجعلهم كبارًا، ويصبر عليهم حمقى ليجعلهم عُفلاء، ويرى عمره كأنه من بعض أرزاقهم، وهو لا يستخلف من العمر شيئًا، وحواسه كأنها من بعض خدمهم، وما له غير حواسه، ويراها كأنما جاءوا إليه من السماء بعد أن اشتروه من الله، وباعه الله منهم بتلك النقطة الشاكية فيهم من دمه!

ألا ليتكم جِئتم للبلاد من أوروبا بمحاريث، بدلًا من هذه المواريث، وجِئتم بالسماد بدلًا من هذا الوساد، وبالبهايم للسواني، لا بالحلّال والغواني، وببضائع الحوانيت، لا ببضائع أنطوانيت ... ولِيتكم إذ كنتم رجالنا لم تغلبكم نساؤهم، وإذ كنتم سيوفنا لم تأسركم دماؤهم، وبِا ليتكم لم تتنعموا وتتأنثوا، فكانت البلاد تجد منكم أهل البأس، ولم تتعلموا وتتخنّثوا، فكانت الأرض على الأقل تعرف منكم أهل الفأس!

...

ذلك هو الرجل، أما صاحبتُه فامرأةٌ فرنسية، جميلة الوجه في طلعة الصبح، شابة الجسم شباب الضحى، ملتعبة الأنوثة كشعاع الظهيرة، رقيقة الطبع رنة الأصيل، زاهية المنظر في مثل شفق المغرب من تألقها، ثم هي تنتهي من كل ذلك إلى مخير أشدّ ظلمة من سواد الليل ... ومن أين اعتبرتها ألفيتها رذيلة مهذبة، يترقق فيها ماء العلم، ويجول في حُسنها شعاع الفلسفة، كأنها عين فاتنة تدور فيها دَمعة دلال!

ولم أكّد أراها حتى أخذني جمالها؛ فإنّ لها عينين رُكبتا تركيبًا يجرّ المصائب على القلب، تُلهيان أشعة ضاحكة أو عابسة، يُخلق منها للقلوب حوادثٌ وتواريخ، وتُرمى بنظرات تُبرئ الصدور أو تُمرضها، وتبسم بوجهها كلّ نوعًا من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية في وجهها قُبَلات؛ أما افتراءُ شفتيها فهو جمال على جِدة يشبه نقل معاني الخمر من فم إلى فم ...

امرأة ساحرة لا أدري إن كانت بُنِيَتْ على السحر، أو على الحب، ولا إن كان هذا الحب قد خُلِق لعنة عليها أم هي خُلقت لعنة عليه، والحب دائمًا بركة امرأة، ولعنة امرأة! والتي تزرعه في كل مكان هي التي لا تحصد منه شيئًا، فإن نالها شيء منه كان تعبًا عليها، رَوَحًا لسواها.

وأشدّ ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة، اجتماع شهواتها في صوتها النَّدي المستطرب المتحزن، الذي لا يخلو أبدًا من حَرْفٍ تسمع فيه همس قُبلة من قبلاتها!

بيد أني مع كل ذلك استعصمت بفلسفتي وحكمتي؛ فلم أرها إلا في مثل حريرة التفاحة إذا أفرط عليها النُضج فابيضت، واحمرّت، وفاحت، ولمعت، وإنّ العفن لبادٍ من تحتها، يُحذّر منها وينذر، وفي مثل فروة الدبّ: استرسلت ولانت في نعومتها، ولكن لا منفعة منها إلا بقتل لابسها، وإزهاق الحيوان كله في سبيل الجمال الظاهر من جلده.

ونظرتُ إليها نظرةً تخطّت بها الشبابَ وأيامه، فإذا هي بائسة أُمّلق الدهر حُسْنُها، ١١ وكان ذهبًا على جسمها وفضة، وإذا هي عجوزٌ هالكة قد انحنت تحت لعنات ماضيها، وتركتها دنياها كالسجن المُتهدّم: لا يذكّر مع انتفاضه إلا بلصوصه ومجرميهِ، وعقابهم وآثامهم، وتُشقى بمعانيه بعد الخراب حتى حجارته، وحتى تُرابه!

وأبصرت في هذه الحسناء اللعوب التي تستوقدُها الضحكة بعد الضحكة، تلك الهامدة المريضة التي تُطفئها الحسرة بعد الحسرة، وسقطت الشجرة الخضراء النامية، فإذا في مكانها جذع خشبي ملقى، رَهَ فيه نورُ السماء وطين الأرض معًا!

وتمثلت لي هذه المنكئة على طرازها وأرائكها تتبرجُ في سُندُسها وحريرها، فرأيتها ممدودةً في حُفرتها، مُسجاةً بأكفانها، قد هِيلَ عليها تُرابها، ولم يرحمها راحمٌ، ولا النسيان يستر رذائلها عند من عرفوها، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها من دود الناس ... عشاقٌ آخرون من دود الأرض، وبفنى جسمها حين يفنى، ويبقى ضميرها الروحيُّ إلى الأبد ضميرَ مومس!

فلما وضعت أمرها على ما خِيلَ إليّ من عاقبتها، إذا هي تفور كما يفور النّبع القدرُ بالحماة التي فيه، ١٢ وإذا هي كالخشبة المُتقّدة في حريقها: من فوقها ظلٌّ من النار، ومن تحتها ظلٌّ، ١٣ وإذا جمالها قد استحال في عينيّ، وانفصل منها؛ فأظهرها، وظهر معها في بريق الزجاجة من الخمر بجانب السكير المُتحمط، تتساقط نفسه مرضًا وسكرًا، فكل ما كان فيها ١٤ جمالًا فهو فيه أقيح القبح!

ورَئيتُ لها أشد رثاءً وأبلغه في الرحمة والرقّة، حتى عادت نظراتها تقطر على نفسي دموعًا سخينة كدموع الذل! ويا حرّة قلبي من الإشفاق عليها، وأنا أرى في احمرار جمرتها سواد فحمها، وفي أسباب سرورها أسبابَ همها! ويا لهفي عليها إذ أرى هذه الجميلة التي لم تنظر أكثر ما نظرت إلا إلى الخطيئة، ترفع نظرها أحيانًا إلى السماء بقوة في داخلها، كأنها تقول لمن يفهم عنها: إن هنا القدر، وهناك المُقدّر! ويا يؤسها حين لم تُعد تظهر في روعي إلا كما يتخايل ظلُّ القمر في الماء؛ أنظر فيه الصورة من غير معنى، والضوء من غير قيس، وأرى فيه الخيال، وليس فيه القمر!

...

وألَمّت بما في نفسي، وكانت تقرأ في وجهي قراءَةً؛ فإنه ليس ذو عينين، ينكشف لعينيهِ سرُّ العاطفة الذي يترقرق في الدم إلا من خالط القلوب، وغلب عليها بخير ما في الخير، أو شر ما في الشر، فهو يتندّس إليها مع ملائكتها، أو مع شياطينها، وإنما خلقت هذه المرأة وأمثالها في هذا الجمال، وهذا الظرف وهذا الفساد؛ لتستطيع أن تمزج الشيطان بقلب من تغترُّه ١٥ مزج المادة والمادة بواسطة بينهما من قوةٍ ثلاثة متهيئةٍ لهما معًا، فهي بجوهرها مسلطة على القلب، غالبية على أمره كتسلط السرور والكآبة، وغلبتهما طبعًا بما فطر الإنسان عليه.

وقلما لصيق الشيطان بقلبٍ ما لم تكن في هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة، فكلتاها كيميائُ الخطيئة، والمعصية، والشك، ولربّ عابد زاهدٍ طاحت به كآبته ففدفته إلى النار كما تقذف بالفاجر لذاته، فيلتقيان منها في غمرة واحدة، ١٦ وإن كانا في العمل على طريقين مُتدابرين، ١٧ وما أشبه إسراف اللذة أن يكون الرجاء اليأس؛ فالمُسْتَهْتَر بهذه اللذة يَغْلُو في استمتاعه غُلُو من ظلم نفسه، لا يتحرّج، ولا يتورّع. ١٨ وما أشبه إغناة الكآبة أن يكون اليأس الرجاء؛ فالمُبْتَلَى بالكآبة يجفو عما عداها جفاء من ظلم نفسه، لا يتسمّح، ولا يترخص، ٢٠ والنفس الغالية التي جاوزت قدرها، كالنفس الجافية التي انحطّت عن قدرها: كلتاها على طَرَفٍ يمين الشرِّ وشماله.

...

وَنَظَرْتُ إِلَيَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ نَظْرَةً حَزَّتْ فِي قَلْبِي؛ لِأَنَّهُ لَا تَسْأَلُنِي الْمَدْحَ، وَكَذَلِكَ لَا تُرِيدُ مِنِّي الذَّمَّ؛ وَبَعْدَ أَنْ رَضِيتُ أَنْ تَسْمَعَ لِي كَأَنَّهَا تَقْرَأُ كَلَامِي فِي كِتَابٍ، وَوَأَقْنَتْنِي عَلَى أَنْ تَعْتَبِرْنِي مُخَاطَبًا فِكْرَهَا دُونَ شَخْصِهَا، وَمُحَاورًا فِلْسَفَتَهَا دُونَ تَارِيخِهَا، قَالَتْ: أَحْسِبُكَ لَسْتَ كَغَيْرِكَ مِنَ النَّاسِ.

قلت: ولا أنا كالملائكة.

قالت: فتعرف الخطيئة الإنسانية، وتقدر قدرها؟

قلت: وأعوذ بالله منها وأتأملها!

قالت: وتعرف ضعف الطبيعة؟

قلت: ومُعَانَدَتِهَا وصلابتها أيضًا.

قالت: فكيف تراني: ألسْتُ نصف المسألة السماوية على الأرض؟ وهل أنا إلا معنى متجسّم من معاني القَدَر؟ وهل خرجتُ من سُلَّالَتِي إلا كما خرجت الخمرة من عناقيدها؟ وهل خُلِقْتُ جميلةً غالية كالدينار إلا لَتُسْتَرَى بي بعض أوقات السعادة؟

قلت: أما المسألة السماوية فإن كنتِ نَصَفَهَا، فقد كان الشيطانُ نَصَفَهَا كذلك، وأما القدر المتجسّم، فلعلّ الحريق في بيت من نكبَ به أجمل وأخف احتمالًا، وهو مع ألوانه الفنية ... حريق، ولا يسمى أبدًا إلا حريقًا، وأما الخمر فهل هي إلا عُفُونَةٌ أُسْكِرَتْ؛ لِأَنَّهُ عَفُونَةٌ، وَأَمَّا الدينار الذي تُسْتَرَى به أوقات السعادة فهو نفسه الذي يُغْرِي للصوص ويُوجِدُهُمْ، وإذا كانت السعادة — كما تصفينها — في نشوة الخمر، فهل تُسْتَرَى الخمرُ إلا وفيها سُكْرُهَا، وَمَرَضُهَا، وَجُنُونُهَا؟

قالت: فحدثني لم كان الحب إذن؟ وهل خُلِقَ إلا للاستمتاع به من حيث يتفق، وعلى أحسن ما يتفق؟

فقلت: إنما خلق الحب قوةً لِيَقْبِدَ بَقِيوَدِهِ كَسَائِرَ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ: فَأَنْتِ تَصْدَعِينَ عَنْهُ كُلَّ قَبِيوَدِهِ، وَتَتَخَذِينَ تِجَارَةً فِي النَفُوسِ، فَلَا تَرُدِّينَ يَدَ لَامَسٍ، وَلَا تَمْتَنِعِينَ عَلَى دَعْوَى فِيهَا ثَمْنُهَا ... وبذلك تجربين مجرى القوة المدمرة؛ ومن هنا كان لك في الاجتماع الإنساني شأن ليس كشأن المرأة، بل كشأن المادة، وكان بعض الأداب والقوانين ينزل منك منزلة المطافئ المعدة للحرائق، وبعضها بمنزلة السجون المرصدة للجرائم، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهين للتاريخ السيئ، وما ظلمك الاجتماع في شيء؛ لأنك أنت في نفسك ظَلَمٌ لَهُ، وَإِنْ الدَّوَاءُ الَّذِي يَبْرِئُ مِنَ الْمَرَضِ لَا يُعَدُّ مَرَضًا لِلْمَرَضِ، وَأَهْوَنُ بِذَلِكَ إِذَا عُدَّ مَا دَامَ يُبْرِئُ مِنَ الْعِلَّةِ، فَإِنَّ دَرَّةَ الْمَفَاسِدِ قَبْلَ جَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَدَرَّةُ الْمَفْسَدَةِ هُوَ فِي نَفْسِهِ مَنَفْعَةٌ!

قالت: فكأنك تذهبُ إلى القول بأن مَثلي مَثَلُ العقرب والحية، وغيرهما مما لدغ أو نهش أو سمَّ، وأنَّ دأبي في الاجتماع كدأبهما، فليس لها إلا القتلُ حيث وُجدت، ومثَلُ الأوبئة والحميات، وما قُتل، وما أُعدى، فليس إلا مُدافَعُها، أو الفرارُ منها فرارًا بالحياة لا بشيء دونها، وكأنني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة، بل كحيوان للأذى والمقت والخوف؟

قلت: بل مخلوقة مثل كل امرأة كانت، وكل امرأة تكون أو هي كائنة، ولكن فيك من الزيادة عليها زيادة ماء السَّيل على ماء النهر، وزيادة الجَدَّة على الطبع الرزين، وزيادة الطيش على العقل، فإذا طغى النهر فأُفسد وخرَّب، وفارت النفس فحمُقت واعتدت، وطاش العقل فزلَّ وأخطأ؛ نهض ذلك عندك عذرًا في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ، وتسويغها، ووجب من ثَمَّ أن تعتدل هذه الصفاتُ الجائرة على قلوب الناس، وأن يطمئنوا إليها، ويرضوها مُدْعِنين، فلا يقيموا على النهر العاتي جبالًا من السدود، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجنًا من الحدود، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم: إن كان عندك الفرار فعندنا القيود؟

قالت: كلا، ما تبلغ بي الغفلة هذا المبلغ، ولقد درست وبحثت، وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظن غيره، ولكني إن أجنَّ لا أجنَّ إلا على نفسي، وهي لي وحدي، وأنا حرة كيف أتولاها، أفأنت رادِّي إلى العبودية؟

قلت: أنت حرة ما شئت، وما وسعتك الأرض إذا كنتِ لنفسك، وإذا كنت لا تتصلين بأحد من الناس اتصال العلة المهلكة، أو المعجزة، أو المذهلة، أو اتصال الرذيلة السَّامة بالدم النقي!

قالت: فأني لا أتصل بأحد، ولكنهم يُغرَمون بي، ويتنافسون عليَّ؛ فأجد في تنافسهم لذة من أمتع لذاتي.

قلت: وكذلك نَرُدُّ الحفرة إذا اعترضت طريق السابِلة وقاية لمن عساه يغفل فيعثر بها، فإن بلغت أن تكون هاويةً طبيعية لا حيلة فيها، ومَرَدَّتْ بها طبيعتها المنخسفة، مَيَّزناها بالعلامات، وضبطناها بالحدود، وسمَّيناها بالأسماء، وجعلناها آية التحذير من الهلاك؛ حتى لا يزلَّ أحد فيتردى فيها، وإذا كان من لذتك أن تشهدي اقتتالهم عليك، فهذا حسبك في أن تعاستهم أن يقتتلوا، وكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني الشقاء والتعاسة!

... ثم إن في تلك اللذة منك دليلاً حيوانياً على أنَّ في طبعك منك إناث البهائم الشاردة، التي تقف ليتناحرَ عليها ذكورُها وقوفَ المملكة المُباحة تنتظر المنتصر؛ فتقتل بإباحتها كلَّ النفوس التي زَهَقَتْ حولها، ولو هي لم تكن كذلك لم يكن شيء من ذلك؛ فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني البهيمية!

... ثم إن هذا وذلك فيك نذيرٌ بانقلاب الإنسانية، ونزولها دون حدها، وترأُّعها في سبيل الجاهلية الأولى، واتصالها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأن لم يكن علم ولا دينٌ، ولا تهذيب، فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني الرذيلة والسقوط!

قالت: هم لا يتناحرون عليَّ بأنبيائهم، ولا مخالبيهم، ولا قرونيهم، وإنما يفعلون ذلك بأموالهم.

قلت: فلا جرم كنت بهذا في لغة الاجتماع معنى من معاني السَّفه، والفقر، والخراب!

قالت: ولكن كم من رجل أحبني، فرأى في آية الإبداع الإلهي، فكان لا ينالني إلا كما ينال المؤمن لذة قلبه.

قلت: فمن ذا أبداع الأصنام، وسلطها على الهوى، ثم سلطها بالهوى على كهنيتها وعابديها، فما يرون الحجر المعبود حجراً إلا لأن عليه بناء ملكوت السماوات ... ولا البقرة المؤلهة بقرة إلا لأنها تجرّ محراث الوجود ... ولا الحشرة المقدسة حشرة تدب دبيبها البيطي إلا لأنها تحمل الخليقة ... لا جرم كنت بذلك في لغة الاجتماع معنى من معاني الضلالة!

قالت: أحسب أنك أعيبتني في مأخذ الحجج، واستتباط البراهين؟

قلت: فماذا؟

قالت: إنني أعدّ الزواج أسراً واستعباداً، وقد بلغت من العلم مبلغاً لا أرى فيه أن تكون حريتي محدودة بسلطة رجل بين كلمتين: لا، ونعم، فاثرت أن أخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه، وعرفته لأتقيه على نفسي، وأتقيه لأبتلي به، ولأصرفه في منفعي؛ فليس لي في الاجتماع زوج، ولكن لي الحب، وليس لي فيه أهل، ولكن لي الجمال.

قلت: أفلا يتسلط على حُرَيْتِكَ الدينار والدرهم ... وإذا أنت بقيت للجمال، فهل الجمال سيبقى لك؟! وإذا كانت لك مدة في الحب، فهل هو خالد عليك؟ ... ألا ترين أنك تزرعين في أيام الحب بذور أيام الحسرة، وأنك متى كبرت عن سن المرأة ٢١ ... فستنتهين لا محالة إلى أمد من العمر يُخَيِّم عليك في مظلمة القبر؛ لا نهار فيه ولا ليل؟ وهل أنت من المجتمع الإنساني إلا مقام الصبي من أهله؛ إذ لا مذهب لك من دونه، ولا غناء في نفسك إلا به؟ أفترين للصبي أن يتفلسف من نظام أهله، ويتحلل من آدابهم، ثم لا تكون وسيلته إلى ذلك إلا أن ينقلب لصاً بيته بيوت الناس جميعاً، فليس له في الاجتماع مال، ولكن له السرقة ... وليس له فيه أهل، ولكن له الحيلة ... بذلك، ولا جرم كنت في لغة هذا الاجتماع معنى من معاني السخرية والمقت!

قالت: فأنا في الاجتماع تعاسة، وبهيمّة، ورذيلة، وفقير، وضلالة، وسخرية؟ ولكن ألسنت ترى هذه الصفات بعينها في كل الناس على بعض التفاوت في مقاديرها، والتنوع في أشكالها، والاختلاف في أسبابها؟ وهل الرجل الفاجر إلا كالمرأة الفاجرة؟

قلت: لقد فجر من الرجال من لا تحصيهم الملايين، فهل علمت أن فاجراً منهم حمل تسعة أشهر ووضع! ألا ترين أن الطبيعة جعلت لكل حكماً، وهيأت لكل موضعاً! وهل سواء في الطبيعة الألم وخطره، وعاقبته على الحياة أن يكون الدمل على ظاهر الجلد؛ حيث يتلدّع على نفسه، ويُرَى ويُحَدُّ، وأن يكون في باطن الجوف؛ حيث يُخشى منه على غيره أكثر مما يخاف على موضعه؟

قالت: فكان الرجل عندك أظهر فجوراً ... من المرأة؟

قلت: بل هو هي في اللعنة والسقوط، والنعل أخت النعل ... واشتتاها على طراق واحد، ٢٢ ولكنه إن لم يكن أعقل من المرأة بفكره؛ فهي أعقل منه بحواسها، وإن يكن أقدر في قوته؛ فهي أقدر في عواطفها، وإن يكن في البليّة عود الثقاب ٢٣ ... فهي بعد الحريق كله! ولذا كان من الطبيعي أن تحاط المرأة في الاعتبار بالمعاني الاجتماعية الكبرى؛ إذ كانت هي الغرض الذي تمتثل له القسيّ الرامية؛ ٢٤ فهي في معنى الكمال الأصل؛ لأنها الأمومة، وهي في العفة الأصل؛ لأنها الزوجية، وهي في الحياء الأصل؛ لأنها العرض، وكذلك هي الأصل في المعركة الجنسية؛ لأنها المقاومة والمدافعة للرجل، والأصل في الفضيلة الإنسانية؛ لأنها المنشأ والمربى للطفل، والأصل في الشرف الاجتماعي؛ لأنها المثال الأدبي للجميع ... ومن ثمّ كان سقوطها سقوطاً لهذه المعاني كلّها، فهو تهذّم الأساس لا الحادث، وفساد الجذع لا الفرع، وعلة نفس الاجتماع لا علة جسمه.

هيهات هيهات، فلن تشعر المرأة الساقطة إلا شعورَ مَنْ فقدت نفسها التي كانت نفسها، وبُذلت أخرى لا تلائمها؛ فهي أبداً هائمة وراء نفسها الأولى تبحث عنها، ولا تنساها؛ لأن ذلك الأصل الطبيعي لا يزال يُناجيهما في قلبها بلغة الأمومة، والزوجية، والحياء، والفضيلة، وما نفسها الشريفة إلا جوابُ هذه اللغة، وهي ليست فيها، فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم في جريمة؛ هي أشقى النساء، ترى ذات عقلها الرهان العقلي على أنها امرأة ساقطة!

...

فَتَغَرَّرَتْ عيناها بندق رقيق من الدمع، وقالت: لما كنت فتاة ...

فقطعت عليها الكلام وقلت: في تلك الفتاة كل البراهين فسليها، إنها هي نفسك الهاربة منك!

فَوَجِمت هُنيئَةً لهذه الكلمة، ثم انهملت عيناها انهمالاً، وجاءها الدمع الطاهر يجري من أقصى الطفولة؛ فخالطني بثها وحزنها كأن دموعها تسقط على مواقع من نفسي!

فقلت: أتأذنين في كلمة؟

قالت: بل أسألك أن تتكلم، فإن مدامعي هذه عرضت لي كالمطرة السانحة في حميم القَيْظ من صميم الصيف على أرض مُغبرة مفشعة، تنثور سُخْطاً على كل قدم تَطوُّها؛ وإنَّ فكري لِيُكلمني الساعة بلسانك كما يدوي الناقوس بصوته العالي الرنان بعد أن كان هذا الناقوس مختنفاً فيّ بما يُطيف به من الضغط؛ فكان لا يدقُّ إلا دقائق مُصمَّتة لا رنين فيها، كأنه ناقوس من الخشب!

آه! لقد كنت كالغدير الصافي: لا يَعرف ماؤه إلا وجه السماء، وضوء القمرين، وأخيلة النجوم، وظلال الشجر والنبات، فأصبحت كالماء الذي كثرت واردته من البهائم؛ فهي تختبطه بأرجلها، وتُضيف إلى وحوله وحولها، ولا تستعذُّه إلا أن تُغشي أعلاه بطبقة من أسفله، ٢٥ وكلما تراءت صورها في كدورة الماء حسيبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية، ولا تعلم أنه يلعنُّها بإظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تعي!

أحسبون أن قلب المرأة حين يُشترى بالمال يكون أظهرَ من خرقة قذرة تتناولها يدٌ أقدر منها؛ أو أثنى من فتات مائدة يُترك لحيوان أعجم؟ ... ألا إنَّ قلب المرأة لا يُباع أبداً، وإنما هي حين تبيعهم: تبيعهم مَعْدَتها باسم القلب ... إنك إن لم تأخذ القلب هبةً ممن تُحب، فما أنت من حبها في (خُذ)، ولكن في (هات) وأخواتها ...

يحسب الناس أنه لا تفرط امرأة في الحب ما تفرط المرأة الساقطة، وما علموا أنها لا تجد الرجل فتجد الحب! إنما الرجال في عين هذه المرأة رجالٌ مصنوعون، فهي معهم امرأة مصنوعة يملك كل رجل إغصابها؛ لأن صناعتها إرضاء كل رجل، ولعل هذا من رحمة الله بها؛ فإن أكبر شقائها أن تجتمع الأقدارُ بينها وبين رجل تُحبه، وتستهم به؛ إذ تألم لذلك ألماً خاصاً فيه تهكم الرذيلة والفضيلة معاً. إنَّ هذا الرجل هو البطل الفذ الذي يكون في قدرته أن يرجع لها ذلك العالم الذي اطرحتها ونبذها، فهو عندها يغمُر الناس أجمعين، ٢٦ ولكنها قلما وجدته إلا لتعرف به حقيقة عارها، وإذا قدر للأعمى أن يُبصر ساعة واحدة، ثم يرتدَّ إلى ظلامه، فما أبصر، ولكن تضاعف له العمى!

المرأة الساقطة يائسة من البُعولة، ٢٧ وذلك عقاب حياتها، ثم هي لا تندفع إلا في الطريق التي تكرهها، وذلك عقاب نفسها؛ فإله أرحم من أن يزيدا بلاء الحب الذي هو عقابُ شرفها وفضيلتها؛ فإنَّ ابتليت قليلاً ما يتفق ذلك، حتى إن الساقطة العاشقة عشقاً صحيحاً، وتبقى ساقطة أندر وجوداً من البغي الثانية توبة صحيحة، وتبقى بغيًا.

...

يا عجباً لضمير المرأة يضل في ليل دامس من ذنوبها، ثم تلمع له دمعاً طاهرة في عينيها، فتكون كنجمة القطب؛ يعرف بها كيف يتَّجه، وكيف يهتدي، وكيف كان ضلاله، وكأن الله ما سلَّط الدموع على النساء، وجعلها طبيعية فيهن إلا لتكون هذا الدموع ذريعة من ذرائع الإنسانية، تحفظ الرقة في مثال الرقة، كما جعل البحار في الأرض وسيلة من وسائل الحياة عليها ٢٨ تحفظ الروح والنشاط لها.

ثم قلت: كانت المرأة نصف الإنسانية؛ فصارت ربعها.

قالت: وكيف؟

قلت: ألا تريها انقسمت في هذه المدينة إلى قسمين متناقضين: الزوجة، وال...

قالت: حسبك، خذ في غير هذا فقد أثبتت ذات نفسي، وما ينفك ولا ينفعي أن تنقض السور الذي أقمته حول حقيقتي؛ فإن كل قوى الكون عاجزة عن إرجاع ورقة واحدة انتثرت من زهرتها!

ثم وثبت إلى البيانة ٢٩ فصدمت عليها بلحن من ألقاها كأن صرخة من ضميرها صاعدة إلى عرش الله في صوت الإنسانية الباكي!

ثم ابتمت وسلمت، فانصرفت وكأني ما تكلمت ولا تكلمت، وبقيت الأقدار مكانها فما تأخرت، ولا تقدمت.

...

ليس على الهاوية أرض تغطيها، فهل تغطيها الفلسفة؟

وقد خسف بها قلبها في الأرض، ٣٠ فهل تُسويها الحجج والمعاذير؟

ولو كانت الحصباء فيها بين لؤلؤة، وزمردية، وياقوتة، فهل من يدق عُنفه في الهاوية ليموت على أرض من الجوهر؟

الهاوية في الطبيعة، والساقطة في الإنسانية: كلتاها أرض كالمرأة، وامرأة كالأرض!

وكذلك يُخلق الطيب والخبيث ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ!

هوامش

(١) هي المرأة البغي تربط بأجر أو بعقد مدني ... في بيت رجل، فتنزل منزلة الزوجة على أنها مدبرة بيته، وتكون ساقطة المعنى، شريفة الاسم “Maitresse”، وهذا الجنس من النساء طاعون الزواج في هذا العصر.

(٢) كناية عن روعة الجمال.

(٣) يمشي في بطء فوق الدبيب.

(٤) الغمض: المكان المجهول من الأرض.

(٥) أي غاب عنهم، تقول: لبث عن أهله كذا ثم أتاهم.

(٦) يسمون أولادهم أسماء ينكرها الدين والوطن معاً.

(٧) هذه كناية عن المرأة يسكت الناس عنها أمام زوجها، فإذا ولى عنهم قالوا في ظهره ما قالوا، ... وكووا قفاه!

(٨) الوساد: كناية عن الزوجة نفسها، والمواريث: كناية عنهن أيضاً.

(٩) الحلائل: الزوجات. والسواني: جمع سانية، وهي السواقي تدور فيها البهائم.

(١٠) فيه نبرات الطرب ونبرات الحزن.

(١١) أفناه وأفقرها منه. كالإملاق من المال.

(١٢) الحمأة: طين أسود منتن، والأخلاق السافلة هي حمأة الطينة الإنسانية.

(١٣) قطع كقطع السحاب.

(١٤) أي الزجاجاة.

(١٥) تطلب غرته وغفلته لتغلبه على فضيلته وعفته.

(١٦) الغمرة: موضع أكثر النار شدة.

(١٧) أي مختلفين متناقضين.

(١٨) لا يمتنع من حرج أو ورع، ولا يرعى قانوناً ولا ديناً.

(١٩) إرهابها وشدتها على النفس.

(٢٠) لا يتساهل فيما لا بد منه لنفسه، وفي الحديث الشريف: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه»، أي المباح والمفروض معاً.

(٢١) سن المرأة: كناية عن زمن الجمال؛ إذ هو العهد الذي تتخذ له المرأة حتى لا غنى لجميلة عنها!

(٢٢) أي قطع واحد، يقطع جلد إحداهما على قدر الأخرى.

(٢٣) عود الكبريت.

(٢٤) أي ترميه، وتستهدفه، وتسدد إليه.

(٢٥) كذلك تفعل البهائم في الماء الصافي إذا وردته، فتخطيه بأرجلها.

(٢٦) يكون فوقهم ويغطيهم في نظرها واعتبارها.

(٢٧) الزواج.

(٢٨) لولا الماء المالح في هذه البحار على الأرض لتعفن جوها.

(٢٩) هي (البیانو)، وقد استعمل بعضهم في ترجمة هذه الكلمة: المزهَر (بكسر الميم)، وإنما هو العود، واستعمل بعضهم (المضراب)، وإنما هو ما يضرب به: كمضرب العود، وجعلها بعضهم البيان (بكسر الباء)، وليس فيها تماسك، والبيان في رأينا أخفها، وأصحها، وأفصحها.

(٣٠) خسف المكان: أي ذهب في الأرض.

الفصل الخامس

المنافق

وهذا فلانُ المنافق، لا يرى في الحب أكبر من باء تنافق للحاء، فهي تنزل عند تقديمها، وتتأخر للمتأخر، ١ كما ينحط الرجل العاشق عن رتبته، ويقدم على نفسه المرأة، وعنده أن هذا برهان طبيعي على أن الحب من غير نفاق هو حب من غير حب؛ فالنفاق هو الأصل، وحسبك به!

أعرف هذا الرجل كالحائط المبهمة: ٢ من أين جنته استغلق عليك، ورأيت رذما واحدا، فلا منفذ لك فيه إلا أن تكون قنبلة آدمية في القوة والشر؛ لأنه رجل المادة لا غيرها، وهو كالمرأة الغادرة: حبها الرجل كلمة على طرف لسانها، ولسانها عمل في طريق منفعتها، وهو كاللص: حبه المال حاسة في يده، ويده على ما يملك الناس!

لونه في الحوادث ألوان، ودينه في المنافع أديان، ونفسه من الناس حشرة في إنسان، وإذا عرفته نظرت إليه كما ينظر المهموم لما جر عليه الهم، وإذا جهلته كان كالدواء المغشوش ذهب منه صواب العلاج، ووقع فيه خطأ السم!

والمنافق هو سياسي الحب والصدقة: يضع المنفعة بن عينيه، ثم تتوزع على جوارحه كل أساليب الكلام والحركة والعاطفة، لا مخرج لك من عقده إلا أن يعقد هو بأسلوب، وتحل أنت بأسلوب آخر؛ وترى صداقته تنتهي أكثر ما ينتهي إلى مثل المقاطعة الحربية بين فراغة السياسة، وشياطينها: يرمي الداهية منهم داهية آخر «بإذار نهائي» حاسم، يحمل الزلازل في كلماته، وينصب للحساب ميزان الهوان والهلاك، ثم يقول له في آخره: «وإني أعتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم احترامي الفائق»!

ولن تجد شرا من هذا الأسلوب ينتحله رجل إلا الأسلوب عينه تنتحله امرأة! ...

والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت كالمنافق رجلا، إلا ذلك الواقف يُدير وجهه بين مراني عن يمينه وشماله، ومن ورائه، وبين يديه؛ فله في كل واحدة وجه، ويتعدّد الرجل وهو شيء واحد.

يخلق الله كل شيء ليكون شيئا على الأصل البين الذي خلق عليه، وللأمر الميسر الذي خلق له، وهو صريح واضح من جهتيه؛ فالأشياء في الطبيعة هي ما ظهرت به مشيئة الله، تضر لأنها ضارة، وتنفع لأنها نافعة، ولكن المنافق كأنما خفيت مشيئة الله فيه؛ فهو من ناحية الإنسانية مخلوق للنفع فضر، ومن جهة الحيوانية خلق للضر فنفق، وفي الرذيلة خلق تلويها للرذيلة، وعند نفسه خلق لأنه خلق! فأنت تعرفه من جهة على قدر ما تنكره من الأخرى، ولو كانت الجهتان متقابلتين؛ فهو دائما في نفاقه مختلف على السر والعلانية، وعلى المذهب والغاية، وعلى المدخل والمخرج، وعلى القول والعمل، ومختلف حتى في كونه مختلفا أو مستقيما!

ولو مددت عينيك في عينيه لرأيت يتخاوص لك بإحداهما، ٣ كأنك أبيض من شعاع الشمس، وإن كنت قد خرجت من مصنع التجليد الإلهي في جلد أسود؛ إذ تأبى إحدى عينيه على كل حالة إلا أن تنافق ليظهر النفاق عليها، وهو من الذين يمكرون السيئات؛ ٤ لينتهوا

منها إلى حَسَنَاتِهِمْ، ويقاربون الذَّمَّ ليخلصوا منه إلى الحمد، وَيَسْفُلُونَ ليرتفعوا كما يبتدئ المقلع دُورَتَهُ من الأسفل ليرمي بحجره رميَّةً عالية، ومهما انتحلوا من العلل، واختلفوا من المعاذير، وقولهم: إنَّ ذلك سياسة ومُخالَقَةٌ، وظرف وأدب من الذوق؛ فهم لا يأتون كل ذلك إلا لأن كل ذلك — عَلمُ الله — هو النفاق.

ويا ليت علم الأخلاق كعلم الجغرافيا؛ إذن لكان له من وجوه المنافقين مصوِّراتٌ ملونة ... ولاضطر العلماء أن يجمعوا من بعض السادة الكبراء مجاميع، ويقيموا لهم معارض! وتلك حقيقة لم يظن لها علامة القروء الفيلسوف (دارون)، ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعةٍ أقبح ما فيها وجوه عظماء الناس؟

...

إنَّ المنافقين من العامَّة، وأشباه العامة بجانب المنافقين من الخاصة، وأشباه الخاصة لكالشَّرِّ يتطايرون عن الجمر: إن هو لذع لم يُحرق، وإن لم يلذع انطفأ؛ فإن خبئت منه شرارة جهنمية، وتلدعت، ووقعت فيما تستوقده، وردَّته حريقاً، فما يجيء ذلك من كونها شرارة كبيرة، بل من كونها جمرَةً صغيرة؛ فالشأن إذن في هذا الجمر الذي يتلظى بمادته؛ لأن له مادةً استفادها من عناصر الأرض، واجتمع منها غذاء النار فيه، كما يفيد أولئك من المال، والجاه، والعلم، والأدب، وما إليها. وإنَّ شر النفاق ما داخلته أسباب الفضيلة، وشرَّ المنافقين قوم لم يستطيعوا أن يكونوا فضلاء بالحق؛ فصاروا فضلاء بشيء جعلوه يشبه الحق!

ولعل هذا النفاق هو أصغرُ رذائل الصغار، وأكبر رذائل الكبار؛ لأنَّ الحاجة في أولئك شريعة ومنهجا، وللضرورة أحكاماً وقانوناً، فالعامي حين ينافق لكبير من العظماء، وينخضع له، إنما يوازن بين ما يعرفه في ذات نفسه من الصَّغار والصَّعَةِ، وبين ما يتوهم في صاحبه من الغلبة والقهر؛ فهو يترقَّى إليه ليدنو منه، أو يترقَّى إلى خديعته ليناله، أو يترقَّى إلى كبريائه ليأمنه، ثم هو في كل ذلك نازلٌ على حكم الحاجة والضرورة، ولو اعتبرت الرُّجلين على الحقيقة، ووزنتهما في ميزان الأسباب، لرأيت النفاقَ منهما من لم ينافق؛ لأنَّ ما لا يُخاض إليه إلا في الوحل، لا سبيل إليه إلا من الوحل، وذلك العظيم رجل بناه النفاق؛ فجعل بابَ نفسه عند قدميه، فإذا أردت مفتاح هذا الباب فافض رأسك، ما من ذلك بُدْ، غير أنَّ نفاق الكبار للكبار شيء أكبر من النفاق في نفسه، وإنما سُمِّيَ به تسامحاً وتجوُّراً، أو لأن اللغة تُنافق هي أيضاً ... وإلا فنفاقهم إن كان صدقاً فأكبر فضيلته الكذب، وإن كان حقيقة فأعظم أدلَّتْها الوهم، وإن كان علماً فأكبرُ شرفه الجهل، وهو التخضع ينقلب ضريراً من العبادة، وهو الوصف المزور يرجع نوعاً من الخلق الذي لم يخلقه الله، ثم هم طبقات، ولكلُّ نفاقها، ولا تدري أعلاها أسفلها، أم أسفلها الأعلى، ولكن الشر دائماً بالجملة، وهم في الجملة يتخلقون، ويتصنعون بما نعرف وما لا نعرف، والكبراء هم موضع الفصل والوصل في بلاغة الاجتماع، وكل رأس منهم فهو كراس الشارع: لا بدَّ لك أن تلتوي، أو تنحرف إذا أنت بلغت، فإما أرسلك في طريق خير أو شر، وإذا كان هذا فإن كل واحد من كبار المنافقين، ومنافقي الكبار هو على التحقيق نقطة انقلاب في أخلاق مَنْ حوله من الناس.

إنَّ مادة حوادث التاريخ هم أولئك العظماء، فإنك لتجد الرجل العظيم في أخلاقه العالية، وسجاياه الكريمة، وفي تأثير هذه الأخلاق والسَّجَايا على الناس — أشبه بالفتح التاريخي المبين، وبالنصر القوي العزيز، ويكون الرجل إنساناً، ولكنه تاريخ، وتجد إلى جانبه المنافق العظيم ... في أخلاقه السيئة، وطباعه اللئيمة، وفي تأثير هذه الأخلاق والطباع على الناس — أشبه بتاريخ ضربة من ضربات الله، أو مجزرة من مجازر الحروب، ويكون إنساناً، ولكنه على ذلك تاريخ!

ولا أعلم في هذه الدنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر؛ إذ الموجودات كلها مبنية على التحاليل والتركيب، وهذا النفاق في أصله مبني على الكذب السافل، فإذا خرج منه شيء خرج منه الكذب العالي ... فترى السياسي يبالغ في النفاق، ويزعم أنه يتكلم بلسان المستقبل، وينافق الأديب، فيقال زُخرفٌ من القول، ومبالغة في البلاغة، ونفاق ذي السُّلطة تواضع، والنفاق من العالم مسلك من دقائق علم النفس، ومن العَنِي مَالٌ يجذب مَالاً، ومن السفه اللئيم شَرٌّ يطلب خيراً، فإن هو كان من امرأة قيل حب، أو من طفل قيل تحبب ... وكما تردُّ المركبات كلها إلى أجزائها المفردة، فإن نفاق أهل الأرض جميعاً يرجع إلى الطفل الصغير كما يَنْبُتُ النَّهْرُ العظيم على مدِّ مجراه من المنبع، وينتهي إلى مصبِّه، وقد جمع من أقدار طريقه على طول ما يمتدُّ! فنفاق الطفل يكون في أصله مكافأة عن محبة أهله وذويه، ثم يكبر فيصبح تودُّداً إليهم، ثم يعظم فينقلب حيلة يحتالها العقل الصغير ليخضع بها العقل الكبير لهباته وهيناته؛ ثم لا تزال تُدْخله بعد ذلك الأهواء والشهوات حتى ينعصر نفاقاً؛ فإذا هو ما هو.

يَبْدُ أَنْ ما يكون من نفس الطفل يكون معقّوا عنه في الأغلب، كأنه ليس من نفس، أو كأن هؤلاء الأطفال حين يتوثّبون ويقفزون في اللعب واللهو يقفزون كذلك من حدود الشرائع ... فللرجل من كل قاعدة حدّ محدود ليس وراءه إذا هو تخطّاه، وتعمّد مجاوزته إلا حائط من السجن، أو حائط من اللعبة، أو حائط من جهنم، ولكن الطفل يتخطى ذلك الحدّ وثبّا، ويكون قد وثب على السجن وجهنم بطبقاتها السبع، ولا يقع في واحدة منها؛ فمهما نافق الصغير فهو ذكيّ خبيث، ولكن نفاقه ينتهي بقُبلة على خديّه أو لطفة ...

لا الصغار في منازل العمر من الأطفال، ولا الصغار في مراتب العمران من العامة، يصلحون أن يقوم بهم النفاق؛ لأنهم جميعا ينسحبون على أصل واحد من الطبيعة، وهو صغرُ النفس، وانصرافها إلى معاني الجسم دون معاني العقل: فلو أنك رأيت طفلاً ينافق لطفل مثله، أو شهدت عامياً من الناس يصانع رجلاً من قياسه المنطقي ... لرأيت في ذينك نوعاً من الضحك الساكت، وفي هذين ضرباً من الوفاق الذي يضحك منه ... إنَّ عظمة النفاق هي نفسها في عظمة أهله الكبراء، وكل شيء قد يصلح موضعاً للبحث والنظر والجدال، إلا ما يعتقد الرجل العظيم أنه عظيم به، وهنا موضعُ التألّه الذي شرع من أجله سجود النفاق، وركوعه، وتهليله، وتسبيحه، فصغار العظماء كأنهم في حاجة إلى النفاق؛ لأن فيهم شيئاً عالياً لا يظهر حدّ علوه إلا إذا قيس من نقطة سافلة ... فإذا أنت عرضت لهم على شرطهم، فنافقت واستخذيت ونزلت عن كرامتك، رأوك مع ذلك منافقاً عند نفسك فقط، واحتجت بعد كل هذا إلى ضروب أخرى من العنت الساق على النفس، حتى يعرفوا بعد أن يجهدك النفاق أنك منافق، فلا تبلغ إليهم رذيلتك إلا وقد صرت في جملتك مجموعة من الرذائل!

...

وإني لأحسب أن النفاق هو بقية ما وقر في النفوس الجاهلة من عهدها الأول، عهد التعبد لكل ما يضر، أو يتوهم فيه الضرر، والتقديس لكل ما ينفع، أو يُظن فيه النفع، وتكون أرواح الأصنام، والأوثان، والعجول، والبقر، والحشرات، والعواصف، والصواعق — وغيرها مما كان يُخص بالعبادة قديماً — هي بأعيانها ما تتمثل فيه أرواح أولئك السادة الكبراء الذين يتقل ظلمهم على الروح ثقل الضباب، ويتراكم على القلب تراكم السحاب، ولا يرضون باباً من النفاق إلا أن يُفضي إلى باب ... ثم تكون أفعال المنافقين في دهانهم، ومصانعتهم، وما تتروّح به أرواحهم، هي في ذاتها بقايا تلك الرعدة، والفرع، والضراعة، وتمريغ الوجوه، والتمسح، وما إليها مما صغرت به أحلام لتكبر أو هام، وكان عبادة أجسام لأرواح، فصار عبادة أرواح لأجسام!

والعظيم الذي تنافق له، ولا يُنكر عليك، ولا يردك، ثم لا يرضاك، ولا تُرضيه إلا على هذا النحو، هو في رأيي رجل خرافي من المعبودات الأولى يحتاج إلى نبيّ يحوّه، فإن لم يكن نبي فرجل حكيم يكشف للناس عن وجه الخرافة فيه، فإن لم يكن فذو عزيمة يصلح به، أو يستطيل عليه، فإن لم يكن فذو دين وتقوى، يريه وجه السماء من دينه وزده، فإن لم يكن فذو علم يقنعه أنه كان تراثاً، وسيكون عظماً ورُفاتاً ... فإن خلا قومه من كل أولئك فقد زين لهم الشيطان أعمالهم، وقد رفع الله عنهم يده؛ فلا يبالي في أي وجه هلكوا!

...

أما إنه لا ينافق إلا الخبيث الذي يحاول أن يقتحم النفوس، وهي غافلة عن أبوابها ومنافذها، فنفاقه من التلصص، وإلا الضعيف الذي يريد أن يقوى بضعفه، فهو يحتال على أن يأخذ القوي من أضعف مكان فيه، ونفاقه من المكر والخداع، وإلا الغاصب الذي يطمع أن يكون الشيء له وليس له، ونفاقه من الظلم، وإلا القوي متى أراد أن يسوق بقوته مساق الضعف لينال بها من غير أن يؤدي، فنفاقه من الكبرياء، والخامسة أن روعة الحب في عاشق تنافق لروعة الحسن في معشوق!

وكذلك لا يرضى عن النفاق، ولا يُقرّه إلا جاهل اكتفى من العلم قبل أن يعلم ما هو العلم، أو مُستكبرٌ غميت نفسه عما حولها، وعما فوقها، أو غبيّ يعرف عقله في وهمه، ووهمه في عقله، ولا يعرف عقول الناس، أو ذو سلطان دنت مِحنته، وأظلمت مُلكه النّعمة؛ فهي تسلك إليه سبيلًا مختلفة، منها فسادُ الناس، ومنها النفاق، والخامسة أن يمتلئ نظراً الجميلة رُضًا وسحرًا حين يمتلئ فم المُحب نفاقًا في هواها!

وأنت فكيف اعتبرت النفاق رأيته كذبًا وخداعًا، ثم مكرًا ومُصانعة في الحق؛ فإن هو فشا في طائفة من الناس ألفيتهم في الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على ألا يصدقوا، ولا ينصحوا، ولا يأنفوا، ولا يُقاربوا الحق؛ فإذا كثر هذا السوادُ في شعب رأيته، ولا يُحسنُ من الحياة إلا الأسبابُ الذي يقتل بها نفسه إن كان قويًا، ولا يهتدي لغير طرق الفقر إن كان غنيًا، ولا ينفع إلا أعداءه إن كان شعبًا ذكيًا، ولا يعمل إلا على السُّخرة لغيره إن كان عاملاً فتيًا!

...

وكل منافق وصاحبه الذي ينافق له، رجلان لا يفهم أحدهما الآخر، أو تكون بِلادة الحس قد بلغت من أحدهما أن يتظاهر بأنه لا يفهم، وبلغت العِلْطَةُ من صاحبه أن يظهر كأنه غير مفهوم، وكلاهما غطاءٌ مُكفأ على حقيقته، ولكن الحقائق المغطاة بأغطية الكذب موضوعةٌ أبدًا على نار تتقد من عزائم المُصلحين، ونفوس الحكماء، وقلوب الأحرار، فلا تزال تغلي كلما طال بها العهد حتى تنفجر من أغطيها، فإذا الزور قد طاح به ما انكفأ عليه، وكان ذلك من سُنَّة الله في إصلاح الناس، وكان من سنة الله كذلك أن تجد الناس ينافقون جميعًا، إلا مُصلحًا، أو حكيماً، أو رجلاً حرَّ النفس!

هوامش

(١) تقع الباء في ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء.

(٢) الذي ليس فيه باب ولا نافذة.

(٣) يقال: هو يخالوص، ويتخالوص: إذا غض من بصره شيئًا، وهو مع ذلك يحدق النظر، أو إذا نظر كما ينظر في عين الشمس.

(٤) يتحرون الأفعال السيئة ويقصدونها.

(٥) مجارة كل إنسان على أخلاقه.

(٦) يتسبب لما يخدعه، من شيء إلى شيء.

(٧) ضربات الله: الأحداث الكبرى في الناس كالطوفان والأوبئة وغيرهما.

الفصل السادس

الصَّغِيرَان

والآن أرى السحاب رقيقًا مُهلَهلاً كأنه في سرقةٍ من حرير أحمر، ١ يشرق إشراق الروح في الطفل الصغير الذي كفلته رحمَةُ الله فتركته إذا ضحك استوضحت له من الضحك معانٍ لا نهاية لها، ولا يعرفها الناس، فما ينفك من شيء تضحكه أو يسره، وإذا بكى لم يجد للبكاء إلا معنى واحدًا من تلك المعاني الكثيرة التي يعرفها الناس؛ فهم لا ينفكون من البكاء، أو معانيه في هموم الحياة!

تقوم الطفولة في روحها، وعهداها، وحوادثها على عقيدة واحدة، هي أن كل ما كان فسيكون غيره، وهي تعرف ذلك يقينًا جزمًا لا شك فيه، وحكمًا لا مُعدّل عنه؛ فالصغار على أي أحوالهم هم كبار الناس في هذا المعنى.

إنك لتعرف الرجل لا بأس بعقله، ثم تراه فيما ينزل به من الحوادث فإذا هو من النفرة والهم، والقلق صورةً كاملة من اضطراب فكره في حكمة ما ابتلي به، فإذا نظرت إلى الطفل في مثل ذلك رأيته صورةً أخرى من نفس حزينه راضية مستسلمة، قد أقرت فيها رحمة الله بحكمة الله؛ فالحزن فيها سبب الهم، ولكنه كذلك سبب الأمل!

...

جلستُ ليلة مع صُحبة من الأدباء في نديٍّ ٢ على عُتق شارع كذا بالقاهرة، وكنا في الوقت الذي يُقبل فيه الليل على أعماقه قبل أن ينتصف بمنزلة واحدة، ٣ تلك الساعة التي هي أول عهد الليل بالتنفس تحت الأجنحة السماوية، ٤ تنزل لِتَخْتِمَ على أعمال الأرض في يومها الغابر، ثم تأخذ في تهيئة الجمال السماوي البديع الذي سيُخلق منه الفجر.

وكان إلى جانبي أديب سكير، نسميه «دمياط الحانة» ... لأن فرعاً من نهر الخمر ينصب فيه كما ينصب فرع النيل عند (دمياط)! وقد عودته الكأس أن يتخذ الليلَ نهراً، والنهار ليلاً، فما ينصرف إلى بيته إلا في فروع الصبح، ٥ ولا ينام إلا والعالم كله متيقظ، ويزعم أنه لا يهتدي إلى عقله إلا إذا أضاعه ساعة أو ساعتين، ٦ ولا يُحسن تصفية الكلام، وترقيق المعاني إلا إذا نصح جوفه بماء الشعر! ٧

وكان في تلك الساعة قد حطَّ عليه الساقى حتى انتهى في سماواته الوهمية إلى الأفق الزجاجي، فعاد كلامه رنيناً، وطنونة لا يفهمه إلا صاحب الحانة وحده ... فلما ذهتته الداهية من كرب الخمر تخطى حدَّ إنسانيته إلى البهيمية السائمة، وما كاد يرتفع الستار الإنساني عن مسرح أخلاقه، حتى رأيتني في رواية عجيبة يمثلها أربعة اجتمعت أرواحها في شخص واحد: سفيه، ومعتوه، وأحمق، وأديب ...

وجعلتُ أتأمل على يقين الخبرة، أشهد على حق النظر عجيبة هذا العقل الإنساني الذي يسبح في الأفلاك، ويتطوح من شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم بوثة أسرع من ضربة الجناح، ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة خمر، وصرت أرى كيف يتحول النبوغ العقلي في بعض ساعاته إلى صناعةٍ خسيصة، هي صناعة الأديب نفسه الشريفة بهيمة من البهائم، وعلمت عِلْمَ هؤلاء الأدباء الذين يحسبون الخمر توحى إليهم، وما في ملء الدن منها ما يعدل فائدة واحدة من قوة الإرادة.

لقد رأيت وعلمت وشهدت بعيني رأسي كيف يبوؤ هؤلاء بالمأثم والمغرم جميعاً؛ ٨ وتالله إنه لأيسر على الباحث أن يجد الشراب الذي يغترف منه الظمان بكفيه ماء زُلاًلاً، من أن يعثر على الكأس التي يقتبس منها السكير فضيلة أو فائدة.

ولو رجع الأمر إليّ ما جعلتُ عقوبة الخمر إلا تحطيم الزجاجات على رؤوس شاربيها؛ وهب أن رأس الأديب السكير هو رأس أرسطو علماً وذكاء؛ فذلك أدعى لتحطيمه؛ لأنه لن يكون في عربدته، وسكره، وانحطاطه، وسقوط همته إلا رذيلة يدافع العلم والذكاء عن وجودها، فينصّبها الشيطان مثلاً للتقليد، ويتخذها الأغرار والضعفاء قاعدة للباطل المتبع، يعملون على احتذائها، ويتحولون عن فضيلتهم بحجتها؛ فيصبح هذا الرأس الواحد كالمطبوعة: متى خبرها الطابع نقلت ما فيها «بحروفه» إلى كل الصحف البيضاء التي تلامسها!

...

... وفي تلك الساعة كانت الأرض قد عريت إلا من أواخر الناس، وطوارق الليل، وبقية من يقظة النهار، تحبو في الطرق ذاهبة إلى مضاجعها؛ فبينما أمدُّ عيني وأديرهما في مُفتتح الطريق ومُقطعه، إذ انتفضت انتفاضة الدُعر، وثبت رجّة القلب بجسمي كله كما تثب اللسعة بملسوعها؛ ذلك حين أبصرت الطفلين ...

صغيران ضلّا من أهلها في هذا الليل، يمشيان على حيد الطريق ٩ في ذلة وانكسار، وتحسب أقدامهما من البُطء والتخاذل لا تمشي، بل ترحزح قليلاً قليلاً فكأنهما واقفان، أكبرهما طفلة تعدّ عمرها على خمس أصابعها، والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات؛ ينحدران في أمواج الليل، وقد نزل بهما من الهمّ في البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تُطوّح به الأقدار، إذا ركب البحرَ المظلم ليكشف عن أرض جديدة.

تتبيّن الخوفَ في عيونهما الصغيرة، وتراه يفيض منهما على ما حولهما، حتى ليحسب كلاهما أنّ المنازل عن يمينه وشماله أطفال مذعورة!

ويتلفتان كما تتلفت الشاة الضالة من قطيعها: لا يتحرّك في دمها بالغريزة إلا خوف الذئب!

ويتسحبان معاً وراء الأشعة المنبثة في الطرق، كأن أضواء المصابيح هي طريق قلبيهما الصغيرين.

منقطعان في ظلام الليل، وليس على الأرض أهنأ من ليل الطفل النائم، فهل يكون فيها أشقى من ليل طفل ضائع؟! نامت أحلامهما، واستيقظت أعينهما للحقائق المظلمة الفظيعة، وضاعا من البيت، ويحسبان أنّ البيت هو الضائع منهما ... طفلان في وزن مثقالين من الإنسانية، ولكنهما يحملان وزنَ قناطر من الرعب.

يا مَنْ لا إله إلا هو، من سواك لهاتين النملتين في جنح هذا الليل الذي يشبه نقطة من غضبك؟ لقد أخرجتهما في هذا الضياع مخرج أصغر موعظة للعين تنبه أكبر حقيقة في القلب، وعرضت منها للإنسانية صورة لو وُقِّ مخلوقٌ عبقرِيٌّ فرسمها لجَدَّبَ إليها كلّ أحزان النفس!

صورة الحب يمشي مُتسائداً إلى صدر الرحمة في طريق المُصادفة المجهولة من أوله إلى آخره، وعليهما ذلّ اليتيم من الأهل، ومسكنة الضياع بين الناس، وظلام الطبيعة وكأبتها!

رأيت الطفلة وقد تنبهت فيها لأخيها الصغير غريزةً أمّ كاملة، فهي تشدّ على يده بيديها معاً كأنها مُدّ علمت أنها ضائعة، تحاول أن يطمئن أخوها إلى أنه معها، ولن يضيع، وإنه معها! ١٠ فيا لرحمة الله!

وقد أسندت مَنكبه على صدرها وهي تمشي، فلا أدري إن كان ذلك لتحملَ عنه بعضَ تعبهِ فلا يتساقط، أو ليكون بها أكبر من جسمه الضئيل فلا يخاف، أو لأنها حين لم تستطع أن تفهمه ما في قلبها بلغة اللسان أفاضته على جسمه بلغة اللمس، أو لا هذا ولا ذاك، إنما هي تستمدّ من رجولته الصغيرة حماية لأنوثتها بوحى الطبيعة التي رسخت فيها!

أما الطفل فمستدلّ خاشع، لو تُرجمت نظراته لكانت هذه عبارتها: اللهم إنّ هذا العمر يومٌ بعد يوم، فأنقِذنا من بلاء يومنا!

ولما وقفا بإزائنا كان هذا الصغير يقَلِّب في وجوه الناس نظراتٍ يتيمة، ترتد على قلبه آلاماً لا رحمة فيها؛ إذ يشهد وجوهاً كثيرة ليس لها ذلك الشكل الإنساني المحبوب الذي لا يعرفه الطفل من كل خلق الله إلا في اثنين: أمّه، وأبيه!

وما أسرع ما تناهض الناس، وأطافوا بهما، وما أسرع ما لاذ المسكين بأخته، واستمسك بها؛ كأن وسائل الرحمة تخيف كما تخيف أسلحة «الجرّاح»، ١١ أو كأن الأصل في هذا الإنسان هو العدوان على أخيه، وظلمه، واجتياحه، فكل حركة إنسانية مشكوك فيها حتى يقع أثرها؛ لأن الإنسان نفسه سيتار منسدل على نيته، وهذه النية آلة للأطماع، فلا تزال في يد الكذب دائماً، لا يدعها للصدق إلا فيما لا «ينفع» ...

وكان الطفل المسكين في جملة النظر إليه، خلُقاً من الحب المؤلم الذي يلهب الدم، يرسل من عينيه الدعاوين سحر المذلة الفاتنة، تلك المذلة التي أعرفها أقوى ما في الحب إذا تذلت الحبيبة في نظرة ضارعة ترسلها لمحبتها المقتون، فلا تبقي في رأسه رأياً، ولا في قلبه نية، وتذلّ له لينذل هو لا غير، كأن أحبّ العزّ في أحبّ الذل!

ونظر إليّ أنا أول رمقة، فذكرت أطفالي فتزلزل قلبي، وأحسست أن دمي استحال إلى بارود وقع فيه الشرر!

وهؤلاء الأطفال الصغار هم إنسانية على حدة، فكل أب هو أبو هذه الإنسانية كلها، ولن يطيق من كان له طفل أن يرى صغيراً ضائعاً في الطريق يستهدي الناس إلى أهله، ويبكي عليهم، أو طفلاً جائعاً يعرض على الناس وجهه المنكسر، ويستعطفهم بصوته المريض أن يطعموه، أو طفلاً يتيماً قد تكل أهله، وضاق بقسوة أوليائه، فانطرح في ناحية يبكي، ويتفجع، ويسأل من يعرفون الموت: أين أبي؟ أين أمي؟

هؤلاء جميعاً ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات حجاب؛ إذ ليس فيهم من الناس إلا اضطراؤهم إلى الناس؛ فهم الإنسانية الرضيعة التي خلُق من أجلها القلب الإنساني في شكل ندي.

...

واطمأن ذلك الطفل إلى صدر أخته، ومال برأسه عليها، ثم أطلق عينيه فينا جميعاً، فما حسبته أراد إلا أن يخبأ في قلبها أفكاره الصغيرة، ثم ينظر إلى هؤلاء الناس نظرات مجردة بلهاء كما ينظرون هم إليه؛ إذ لم ير فيهم من فتح له ذراعيه، ولا من حملة، ولا من تحنّى عليه، ولا من ضحك له، ولا من أعطاه شيئاً يأكله!

ألا إنما الناس صُورُ الفكر، وصور القلب، فمن لم تر فيه صورة من أفكارنا التي نلتمسها، أو من أهوائنا التي نحبها، فذلك ليس منا، ولسنا منه، وإن سمي أخاً في لغة النفاق، وإن دُعي حبيباً في لغة المجاملة، بل هو مخلوق ليكون النموذج الذي نتعلم عليه البغض إن كان متصلاً بنا، أو التسامح إن كان بعيداً عنا، ولم تتصل بنا، ولا أخباره ...

وكم بين الناس من اسم تعرفه على صاحبه كهذا النور الأحمر الذي يضعونه في الطرق؛ فيضيئونه من الليل فوق الحُفر ... لينذر الناس ما وراءه، ويقول لهم بصوت النور: ههنا ما ينبغي أن تحذروه، ههنا حفرة ...

إنما الناس صور الفكر، أو صور القلب، فهم منقسمون حين يُولدون أسباطاً أسباطاً باختلاف الدم في كل أسرة، وهم متفرقون حين ينشئون أفواجاً أفواجاً باختلاف الصحبة في كل فئة، وهم متباينون حين يتدفعون أحزاباً أحزاباً باختلاف الهوى في كل طائفة، وهم متناكرون حين يتنازعون أمماً أمماً باختلاف المنفعة في كل أمة، فتلك أربعة وجوه تلبسها الإنسانية فيهم، ومن ثمّ قضي على هذه

الإنسانية المسكينة في الأرض أن تكون ثلاثة أرباعها عداوة، كالأرض نفسها: ثلاثة أرباعها ماء ملح لا يُساغ ولا يشرب، وإنما منفعتها للكون كله في الجملة! ولعل شيخاً من الشيوخ لو تدبّر حياته، وأحصى أقدارها، وميز أنواع حوادثها، وما أتى عليه فيها من أولها إلى آخرها، لرأى ثلاثة أرباعها ملحاً أيضاً ...

إنما الناس صور الفكر، أو صور القلب، فليس يأتي للوالدين أن يرثوا من أولادهم ناساً، بل أهواء ومطامع يناقض بعضها بعضاً: مطامع تتبع أسبابها، وأهواء ترجع إلى غرائزها؛ فلو أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظاهر دنياهم حتى يكون سواء لا يخالف شيء منه على شيء؛ لبقى الانتقاض والاختلال في باطن الإنسان، حتى لكان بعض الدم يخلق غالباً على بعض الدم. وإنه لا شيء في هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده، فإذا استقامت الأمور فلمن تكون الأضداد لعمري؟

إنما الناس صور الفكر، أو صور القلب، فدنيا كل إنسان في شيتين: ما يَنزِع إليه بفكره، وما يميل إليه بقلبه، والإنسان من كل إنسان أحد اثنين: من ترجى به المنفعة، ومن تكون فيه المحبة، والإنسانية من كل إنسان في منزلتين: أدنى الحب، وتلك منزلة الصداقة، وأعلى الصداقة، وهي منزلة الحب؛ فأما وراء ذلك فصحراء الإنسانية الكبرى المقفرة من قلب الشخص وفكره. ولولا الأديان لخربت الدنيا، فإن هذه الأديان قد عمرت هذه الصحراء بعنصرين جليلين أنبتا فيها القلب والفكر، وهما: خوف الله في خلقه، ومحبة الله فيهم؛ فحيث وُجد هذا الخوف، وهذه المحبة وُجدت الإنسانية، وعلى ذلك فالإنسانية العامة الحقيقية هي الإيمان، والإنسان العام الصحيح هو المؤمن، والسلام العام الكامل هو الله جل جلاله.

ولكن يا لشفاء الإنسان التعس! إن أعجب ما في الشر أن اختلاف الناس في فهم هذه الثلاثة هو أصل الشر!

وسألوا الطفلين أسئلة سياسية ... ما وطنهما؟ وما جنسهما؟ أي من أي شارع، ومن أي والد؟

ألا ضل ضلأكم أيها الناس! فلو أنهما يعرفان من أي شارع، ومن أي والد لما كان منهما ما ترون، على أن الطفلة لجُلجت في بعض كلمات تشبه اضطراب قلبها، وكان الصواب كله ماثلاً لعينيهما مجتمعاً في ذهنها، فالبيت، والشارع، والأب، والأم كل ذلك واضح في خيالها، ولكن الذي استنبه عليها هو تحديد نسبته إلى هذا الوجود الذي تراه كله بيوتاً، وشوارع، ورجالاً، ونساء، وإنما تحديد الشيء هو تعبير الطبيعة عنه، وإنما تعيين نسبته من غيره هو تعبير الشيء نفسه عن خصائصه؛ فإذا أنت عرفت نسبته من سواك، وحصرت هذه النسبة في حدودها وأسوارها، فقد أمنت الخطأ في سعادة نفسك، وأصبحت بتلك المعرفة أسعد إنسان.

ولكن من لك بهذه المعرفة، وبهذا التحديد، وقلوبُ الناس كافة كأمواج البحر في البحر: تظهر كلُّ واحدة قائمة بنفسها في رأي العين، وهي راجعة في جميعها إلى أصل واحد، هو هذا السيل المتحرك الذي يتضرب بعضه في بعض ليوحد الأمواج ويُفنيها.

ما أراني أعرف بعد طول الفكر سبباً للشقاء الإنساني، يجمع كل ضروبه إلا سبباً واحداً؛ هو أننا معنُون لكل الحالات المختلفة التي تطرأ على الحياة بقلب من نوع واحد، فإذا استطعنا أن نجعل ظواهرنا موضع الترتيب، فإنَّ بواطننا أبداً موضع الاختلاط، والألم والنكد!

...

ولما رأيتُ حيرة الطفلين ضممتُهما إليّ، وألحيتُهما عن كآبة القلب بسرور البطن، فدفنتُ كلَّ آلامهما في بعض قطع من الحلواء؛ فطعمنا واستضحكا، وتطعمنا الحياة جديدة آمنة.

والطفل لا يعرف مستقبلًا ولا ماضيًا، وما هو إلا حاضره؛ فإن عيبته بأمره فأوجده ما يلهو به، فهذه هي سعادة الطفولة، ولقد سرَّهما من الأديب السكَّير الذي كان إلى جانبي أضعافُ ما سرهما من الحلواء، بل كان زيادةً في حلاوتها؛ فحسبناه يتعمَّد بسطهما، وإيناسهما بحرَكَته وبكلامه الذي يطن في السماوات الزجاجية؛ فكانا يضحكان منه، وكلما تكلم أو أشار أو تحرَّك أو أنكر عليهما، استخرج بذلك منهما مثل تغريد العصافير؛ فكانت كل الفائدة من سقوطه، وضياح عقله أنه أضحك طفلين!

وقدَّرت في نفسي أنهما من هذا الشارع الذي نحن فيه، أو من فصيلته في الطرق التي تخالطه أو تقاربه، وقلت إن ألهما على أثرهما؛ فجعلت أستاذي وأنتظر، وبينما نحن على ذلك، إذ ارتفع سوادٌ مقبل كأنه روحٌ ليلَةٍ مظلمة تغشى الطريق؛ فتبينت فإذا امرأة تهفو كذات الجناحين، وكأنها تتساق بقوة تحترق في داخلها، ثم أخذتُنا عيناها فإذا هي أمُّ الطفلين، تبدو من لهفتها، واستطارتها لولديها كأنما تحاول أن تخطفهما من بعيد بقوة قلبها، وما عرفت أنها هي إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها، ملموسة في نظراتها إلى الصغيرين، لها هيئةٌ هيئة أمِّ ١٢ وضعت الجنة تحت قدميها، فترى في وجهها معاني ليست من هذا العالم، وليست من الجنة نفسها؛ إذ تزيد على كل مسرات الدنيا هناءة الاطمئنان السعيد المفاجئ الذي لا يكون في الحياة إلا هُنيئة ثم ينقطع، وتزيد على ما هناك هذه اللهفة اللذيذة التي لا توجد إلا هنا على أرض حينما تفجأ السعادة بعد شقاء لا يُحتمل.

إن من لم ير أمًّا أسفى طفلها على الموت في حادثة أخذته بغتة، ثم نهض سليمًا معافى، أو ضلَّ عنها مدة حتى يبُست منه، ثم اهتدت إليه؛ لا يكون قد رأى شيئًا من سعادة الإنسانية العالية النادرة التي لا تكون إلا في الأمهات خاصة، ولا يشهدها الناس إلا في ساعة حرجة، تلمس فيها يدُ الله قلب الأم!

...

وهلَّ الطفلان ١٣ لما أبصرا أمَّهما، ونفضا أيديهما نفض الأجنحة، ثم أكبت هي عليهما بجسمها، ومدامعها، وقُبَلاتِها، والتحما بها التحام الجزء بكلِّه، واشتبيكت الأذرعُ في الأذرع حتى لا تفرق بين ثلاثتهم في معاني الحب إلا بالكبير والصَّغر، ورجعت معهما طفلة كان تاريخها ابتداءً جديدًا في ساعة من الساعات الفاصلة التي يتحوَّل عندها التاريخ.

وإذا كانت القلوب بين إصْبَعين من أصابع الرحمن يُقَلَّبُها، فلقد كانت هذه القلوب الثلاثة في تلك اللحظة تنطق وجوُّها بأنها في يد الله يَهْزُها هزًّا! ولَمْ وددت لو أستطيع أن أخلط بها قلبي المسكين في لمسة واحدة ليشعر ولو لحظة في هذه الحياة أنه سما بروحه فوق العالم كله!

لو أصابك الهمُّ لحبيبك إذ تراه مهمومًا مُتألِّمًا لَذَقْتَ أحلى أنواع الآلام السعيدة؛ فكيف بك لو تبدَّل همُّه بغتةً، فأقبلتُ عليك قُبَلاتِهِ وضحكاته تُزحزح عن قلبك ناموس الكآبة؟

الحب! وما الحب إلا لَهْفَةٌ تهدر هديرها في الدم، وما خُلِّقت لهفة الحب أول ما خُلِّقت إلا في قلب الأم على طفلها تَرأُّمُه وتحنو عليه، ولن يحفظها للعالم إلا هذا القلبُ نفسه. ولقد يكون عمرُ الطفل يومين، ولكن لهفة أمه عليه، وحفظها إياه حفظ عينيها، تجعل له من الحب عمرًا متطاوُلًا، ولا يقاوم به الأقدار العادية عليه في مسارحها، ولولا ذلك لَحَطَمَتْهُ هذه الأقدار كما تحطم كلُّ طفل أهمله ذوو عنايته، ١٤ فلهفة الأم على طفلها كأنها قوَّة سنين عددًا في جسم هذا الطفل، ومن ثَمَّ لم يكن الحب الصحيح في أسمى مظاهره إلا حبَّ المرأة لبني بطنها، ١٥ وإنما يسمى غرام العاشقين حبًّا؛ لأن في العاشق دائمًا مع حبيبته أكبر معاني الطفولة، وفي العاشقة دائمًا مع حبيبها أصغر معاني الأمومة.

وما كان هذا الغرام ليُسمى حبًّا لولا ذلك، ولولا أن في اللغات لصوصًا من الألفاظ تسرق معاني غيرها ...

حب الأم في التسمية كالشجرة: تُغرس من عود ضعيف، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها، ولا تزال تتمكن بجذورها، وتمتد بفروعها، حتى تكتمل شجرةً بعد أن تُفني عِداد أوراقها لياليَ وأيامًا.

وحب العاشقين كالثمرة: ما أسرع ما تنبت، وما أسرع ما تنضج، وما أسرع ما تُقطف! ولكنها تُنسي الشفاء التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض، والشمس، والماء في الشجرة القائمة.

لا لذة في الشجرة، ولكنها مع ذلك هي الباقية، وهي المنتجة، ولا بقاء للثمرة، ولكنها على ذلك هي الحلوة، وهي اللذيذة، وهي المنفردة باسمها.

وهكذا الرجل: أغواه الشيطان في السماء بثمره فنسي الله حينًا، ويُغويه الحب في الأرض بثمره أخرى فينسى معها الأم أحيانًا!

...

وذُهِبَت المرأة بالصغيرين بعد أن شهدت منها ومنهما مواقع رحمة الله في القوى المسكينة التي لم تجئها المسكنة إلا من كونها أظهر القوى وأطفها، وانفجر قلبي آلامًا وسرورًا ورحمة في ساعة واحدة، ثم كاد ينفجر آخر الأمر من الضحك ... حين أراد الطفلان أخذ الأديب السكر معهما؛ لأنه مضحك!

هوامش

(١) سرقة الحرير: هي القطعة من النوع الجيد منه فتكون رقيقة مشرقة.

(٢) قهوة.

(٣) أي ساعة.

(٤) كناية عن الملائكة.

(٥) أوائله وأعلىه.

(٦) كناية عن السكر.

(٧) كناية عن الخمر.

(٨) المأثم: الإثم والذنب، والمغرم: ما يغرم عليه من المال، قاتلهم الله! يشترون بأموالهم «تذاكر الدخول إلى جهنم» ...

(٩) هو التلتوار: أي جانب الطريق. عن ابن سيده: «حيد الجبل شاخص يخرج منه، وجبل ذو حيود وأحياد، إذا كانت له حروف ناتئة في أعراضه»، قلنا: وهذه صفة التلتوار إلا أنه غلط في جانب الطريق لا في جانب الجبل. وبعضهم يترجم التلتوار بالإفريز، وهي كلمة مشتركة، أكثر ما تستعمل في النقوش البارزة، وبعضهم يستعمل الطوار (بفتح الطاء)، ولكنه للدار ما يمتد معها من فنائها، وبعضهم يستعمل البرزوق وهي ثقيلة نافرة، ولا أفصح وأخف من الحيد، تقول: حيد الطريق، وللشارع حيدان، وحيود الطريق وأحيادها، وهلم جرا.

(١٠) حالة أنه معها، وهو تركيب من أبدع الكلام.

(١١) الجراح: كلمة محدثة، وصوابها الجراحي في اللغة القديمة، ولكن الأولى أفصح، ولا بأس بها لغة.

(١٢) هذا من تراكيبيهم البليغة، وهو تكرار يُستعمل في إثارة النفس وتنبيهها فيقع منها أي موقع! والكلمة الثانية تنصب إذا أُريد بها الحدث.

(١٣) صاحبا صيحة الفرح.

(١٤) أهله والقائمون بأمره.

(١٥) أولادها.

الفصل السابع

الشيخ علي

وكانما أنظر الآن في قلب رجل لا في وجهه، إذ تهلل على السحاب وجه «الشيخ علي» شيخ المساكين. ١

أراه كما كنت أعرفه ضاحكًا غير الضحك الذي يلبس وجوه الناس، فلا يضحك لشيء إنساني، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلل فرفع وجهه إلى السماء، وأرسل من فمه مثل نور التسبيح في إشراق جميل، حتى لقد كان يُخَيَّل إليّ حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك، ولكن قلبه يرتعش بعضلات وجهه!

لو أراد الله بالناس خيرًا لوضع في أبصارهم أشعة تنبئ في أطواء القلوب؛ فتعرف ألوان العواطف، وتميزها لونًا من لون، ولكنه جعل الوجه غطاء على معاني القلب، ثم سلط الفكر على معاني الوجه ومعارفه، يصوّر فيها ما شاء مما له أصل في الحس، وما لا أصل له حتى ليختبئ الإنسان عن الإنسان، وهو مكتشف لعينيّه ... وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخير والشر صريحين، فقد أوجد الإنسان ثالثًا لهما، وهو تلبس أحدهما بالآخر، وأراد الخالق ذلك، ويسره للإنسان، فجعل فيه آلة واحدة للصدق، وهي القلب، والثنين للكذب: وجهه، ولسانه!

...

كان «الشيخ علي» يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها، على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته، ٢ وكانت الدنيا كأنما نسيت أنه فيها، فتركت له روحه صافية منطلقة، تتطعم الحياة غير مستقرة في شيء، كما يتطعم النسيم رائحته من ورق الزهر؛ فهو يتسحب عليه، ولا يستقر فيه، ولو أنه ورق الزهر.

وما زالت روح هذا الرجل مني منذ عرفته كأنها نضاجة عطر، ٣ تمجّ رشاشها على حياتي رَوْحًا وعبيرًا وندى، وكان الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي، يملأ ما حوله ابتسامًا، وطفولة، ورقّة، ولو أن أحدًا خُلِق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو «الشيخ علي» رحمه الله، على أنه كان رجلًا من سوسه القوة، معصوبًا متكدسًا، ٤ يملأ جلده جذلًا من أجذال الشجر. ٥

...

... وانقبضت نفسي انقباضة شديدة، إذ تغير الرجل في خيالي؛ فنظر إليّ نظرة ينقدح منها شرُّ الغيظ، فلو أبصرت عيناك طائرًا ضعيفًا أراغه نسر، فاستطرده في نواحي الجو هكذا وهكذا، ٦ ثم أهوى له بمخالبه، ثم سدّد إليه نظرة غرزت هذه المخالب، وانفجرت بآلام لحمه ودمه — فاعلم أن تلك هي كنظرة الشيخ إليّ، ولقد تبعثرت لها شياطين نفسي، فانطلقت يحاول كل شيطان منها مهربًا،

وكانت توسوس في صدري أن أستمَدَّ من روح الشيخ قوله في الحب، هذا الحب الذي مهما اعتبرتَه لم تجده إلا كإحياء الخيالات بقتل حقائقها.

... ثم ما لبث أن استضحك، وأطلق لي نفسي، وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة، فقلت: وبحك يا نفس! إن عين الشيخ ترى من الجمال غير ما نرى، ثم تعلم علمها مما نظرت فيه، ثم تقدِّره على حساب ما تعلم منه؛ فما يدرك لعل هذا الرجل الرُّوحاني لا يرى إلا ما وراء تلك البشرة الجميلة التي تكسو وجوه النساء الجميلات، كما تُبصر نحن من وجوه الموتى، وقد تأكلَ جلدُها، وتتناثر لحمها، وبرزت عظمًا كسائر العظم من كل حيوان؛ فلا موضع قُبلة، ولا سحر نظرة، ولا إشراقَ بسملة، وما هو إلا تركيب من العظم صنَّع هذه الصنعة؛ تيسيرًا لما خُلِقَ له ... ولعله يا نفس لو حَسَرَ الله لعينيك أجملَ الجميلات في صعيد واحد، وحشر معهنَّ إناث البهائم صنفاً صنفاً، ثم نزع عن تلك الوجوه كلها ذلك الطراز من الجلد، وما وراءه من اللحم مُزعة بعد مُزعة، ٧ حتى لا يبقى إلا الوضع في بناء العظام وهندستها؛ فما يدريك لعل أجمل الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذٍ إلا أقبح القبح هناك؟

أفمن جلدة على وجه امرأة يجيء الشعر والجنون معاً، ويجتمعان في هذا الخيال الذي يسمى الحب، ويستنزلان معاني التقديس من أعلى السماوات إلى عين تلحظ لحظة، وشفة تبسم بسملة؟

إنه القلم الإلهي المبدع الحكيم هو الذي صَوَّر وَلَوْن، وافتنَّ ما شاء؛ فإن رزقت امرأة جلدة جميلة مشرقة كأنما تجري فيها الشمس، وألبست أخرى جلدة قبيحة سفعاء، ٨ تجول فيها رهبة الظلمة؛ فكلتاها صبورة من صنع الله، وكلتاها تُظهر لوناً من ألوان الحكمة، وكلتاها جاءت لمعنى، وكلتاها بعد غشاء زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه، ولا في تلك: وضع الحقيقة الجسيمة التي تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة، والحياة لا تعرف البشرة إلا غطاء على ما وراءها، اسودَّ أو أبيض، وكان من لون المرمر، أو من هيئة الطير!

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خُلِقَ دميماً نافرًا على أبشع ما نتصوِّره من القبح، لكان كلُّ نساء الدنيا جميلاتٍ؛ إذ يَأْلَفُ الطبع الإنساني تلك الصورة الواحدة، ويتقرَّر بها الذوق في الجمال، وتستمر بها العادة، فلا يستبين وجه من وجه آخر في صفة، ولا يخالف مذهبٌ مذهباً في حالة.

ولكن هذا الإنسان كُتِبَ عليه الشقاء، فخلُقَ وخلق معه ما يُطغيه، وما يستقرِّه، وما يُخرجه عن طوقه، كما خُلِقَ له ما يُزهدُه، وما يطمئنُّ به، وما يحصره في إنسانيته. فالجماليات والقيحات كلهن سواء في أنهن نساء هذه الإنسانية، لا تقصِّر في ذلك واحدة عن واحدة، وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الإنساني الذي يبطل الرجل بالمرأة، ويمتحن المرأة بالرجل.

ولو سما عقل الرجل إلى الغاية العليا من كماله؛ لرأى المرأة الجميلة الفاتنة في نصف جمال المرأة القبيحة، ولبانت الواحدة عنده من الأخرى بأن الدمية مهيأة في نفسها لمعاني الأخلاق، والجميلة مهيأة لسفسافها، ٩ ولرأى مع هذه بعض طباعها، ونزاعاتها شرًّا مما تقدم بها من جمال وجهها، ومع تلك من أكثر طباعها، وصفاتها خيراً مما قصّر بها من حسن صورتها.

يَبْدُ أن من شقوة الطبع الإنساني أنه سخط القبح فأحاله فساداً، وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر؛ إذ كان في نفرته وحبه لا يعتبر المنافع والحقائق، ولكن الأهواء والشهوات، والمنفعة والحقيقة كلتاها لا تكون إلا في قيودها، أما الأهواء والشهوات فهي دائماً لا تقع إلا مُتَخَطِئَةً حدود العقل، إما إلى النقص، وإما إلى الزيادة، ولا تُغري بشيء إلا أوقعت به السوء، إذ لا يستوي في القصد ما خرج عن الحقيقة، وما هو مقيَّد بالحقيقة.

...

كان هذا وحَيَّ «الشيخ علي» في نفسي، غير أنني رددته عليه، وأزلَّني شيطان الحب مرة أخرى، فقلت: أفترى الشوواء على ما بها مما ركع للدهر وسجد، ١٠ ثم تلك المرأة التي سُمِّجَ تركيبها فتحامتها العيون، ثم الأخرى التي قِمِعت في بيتها تختبئ فيه من القبح؛ ١١ فصارت سرًّا في صدر الحيطان، ثم تلك التي تلوح في النساء كالسطر المضرب عليه أفسده الخطأ، ثم المهزولة التي أدبر

جسمها، ١٢ وتقيّضت أعضاؤها، وأصبحت جلدة تمشي وتتكلم ... أفترى هؤلاء أو إحداهن كذلك الغانية المتشكلة في ألوان الثياب كأنما تلبس بدنّها الجميل بدنًا معنويًا يدل على معانيه، أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتان عاطلة من كل حيلة، ومع ذلك ترفّ على حسنها روح الياقوت، والألماس، واللؤلؤ مما عليها من البريق والشعاع، أو المطوية الممشوقة المسترسلة، كأنها في قوامها ووجهها غصن الجمال وزهرته، أو الحسناء اللعوب المزّاحة، كأنما اجتمعت طباعها من نور القمر أطلّ في ليلة من ليالي الربيع يداعب أوراق الورد النائمة، أو ... أو تلك يا شيخ علي ...؟

قال الشيخ علي: فيا ويلك! إني والله بك من رجل لخبير، ١٣ أفمن أجل واحدة؟ أما إنه لعل الذي جعلها حقًا عندك هو الذي يجعلها باطلاً عند سواك، ولعله ما حسنها في عينك إلا أن طبعًا من الجد فيك استملح طبعًا من الهزل فيها، كما ترى معنى مكدودًا في إنسان يستروح إلى نقيضه في إنسان آخر. ولعل من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهموم أن يتصوّر في همه من يعرفه طروبًا فرحًا، وإن كان كلا الرجلين لا يسكن لعشرة الآخر لو تعاشرا واختلطا. وهذه القلوب لا تؤتى من مأتى هو أدق وأخفى من توهم ما فيه اللذة؛ فإن النفس ترجع عند ذلك بكل حقائقها إلى نوع واحد من الوهم، ينصرف بها إلى تمثل هذه اللذة التي استشرفت لها، وطمعت فيها، فإذا طعمها في الدم يهيج له سعار ١٤ الجوع العصبي ... وما هي السرقة مثلاً إلا أن يضع اللص عينه على المال أو المتاع، ويتذوق طعم اليسر والفائدة، فتجنّ أعصابه جنون الحاجة، فلا يرعوي إلى شيء من الرأي يزره، أو يمنعه، أو يكفه، ويكون في الحقيقة سارقًا من قبل أن يسرق، وكذلك يكون الفاسق متى نظر إلى المرأة واشتهاها، ونبه معانيها في نفسه، وقل مثل هذا في كل من طار قلبه، وطار صوابه.

أُلّه عن وهمك يا بني، وضع الأمر على قاعدته، وسدّد نظرك إلى حقيقته، ودعني من حبل الباطل الذي تجرّ فيه شيطان هواك، أو يجرك هو فيه، وما تتكلم عن اثنين من الخليفة: أنت، وهي، ولو أن الأمر قد انحصر فيكما، وفنيت بالحب فيها لكانت هي الكون كله، ولو فنيت هي فيك لكنت أنت ذلك الكون، وهذا — حرسك الله — موضع النقص في النفوس العاشقة؛ إذ تنقطع إحدى نفسيين من العالم إلى نفسها الأخرى: وهو نقص أشبه بجنون المجانين، بل هو متمم له؛ فإنما ذهاب العقل في المجنون المختل هو نصف الجنون الإنساني، أما النصف الآخر فهو تجرد العقل في العاشق المتدله.

نصف الجنون في العاشق الذي يتجرد من الناس إلا من أحب، ونصفه في المعتوه الذي يتجرد من الزمن إلا الحاضر!

إنه ليس للمجنون عند نفسه ماض ولا مستقبل؛ إذ لا يأمل هذا، ولا يذكر ذاك، وكل سعادة نفسه في هذا النسيان الذي طمس عليها، وتركها كأنما تعيش في غير عمرها، بل في كل أعمار الإنسانية، بل بغير عمر، وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخص آخر ممن مضى، وممن يأتي، مادام الحب قائمًا؛ فالحبيب هو الحبيب، وكل الناس بعده أدوات، وشخص واحد هو الألف واللام، والحاء والباء، والناس جميعًا نقطة صغيرة ملقاة تحت الباء فقط ...

(قال الشيخ علي): ثم يبرأ المجنون، ويثوب إليه عقله؛ فيعرف أنه كان مجنونًا، ويُبغض المحبُّ، أو يسلو ويبرأ من وهمه في تلك المرأة، فلا يرى إلا أنه كان بها مجنونًا، أفلا يكفي هذا — ويحك — في الدلالة على أن الحب والجنون من أم واحدة وإن اختلف أبواهما؟ ... وإن رأي العاشق في كل النساء كراي المجنون في كل الناس: لا يجوز أن نأخذ بواحد منهما إلا إذا أخذنا بالآخر، وأقررناه في باب الصواب والعقل؛ إذ كلاهما حاصل من حالة متى تغيرت فانتقلت اعترف صاحبها عليها بالجنون، وإن كانت إحدى الحالتين في طبيعتها، ووصفها غير الأخرى؟ ويُلّمّه وصفًا من العاشق لو كان مع صاحبه رأي وويلمّه ١٥ رأيًا من المجنون لو كان مع صاحبه عقل!

...

(قال الشيخ علي): سئل الحلاج ١٦ وهو مصلوب يعاني غصة الموت: ما التصوّف؟ فقال لسائله: أهونه ما ترى ... فهذا رجل يموت في سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماوي العجيب، وعلى أنها قد دقت المسامير في أطرافه، وجمعت لموته آلام الحياة كلها، وأنبتت في كبده من وخزات الجوع شجرة من الشوك، وأطلقت في عروقه من لذعات العطش لهيبًا من النار، وتركته على صليبه ممدودًا تتساقط نفسه كما يُنشر الثوب الذي بلي وانسحق، فهو يتمزق من كل نواحيه؛ على هذا البلاء كله، لم تتغير الحقيقة في رأي الرجل، ولا فساد موضعها في نفسه، ولا أرى ما يكرهه الناس من الألم مكروهًا في ذاته فيميل عنه، ولا ما يحبونه من اللذة محبوبًا فيميل

إليه، ولا تسحب قلبه حركة واحدة في السخط على الحكمة الإلهية فانتقصها برأي، أو اغتمز فيها بكلمة، بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحد الإنساني المنتهي فيه، إلى ما يبدأ عنده الحد الإلهي الذي لا ينتهي، ورجع آخره إلى أوله، فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نزل به: اللهم إنك بدأتني طفلاً غراً جعله فقدان العقل لا يملك مع أحد إلا صياحه، فخذني إليك طفلاً عاقلاً جعله العقل لا يملك مع أحد، ولا صياحه!

واذكر الطفل يا بني، فربّ معضلة من أمور هذه الدنيا يحار الناس في آخرها، وهي محلولة من أولها. وما هؤلاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يُعلّموننا وهم يتعلمون منا؛ غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصلح، ويأخذون عنا فيفسدوا! أفرأيت ولد الشوهاة تعرف عيناه في كل ما طلعت عليه الشمس أجمل من وجه أمه، أو يرى طائلاً في وجه سواها، أو يحنُّ إلى غير طلعتها، أو يسكن إلى صدر غير صدرها، حتى كأنَّ الله لم يخلق وجه حبيب لقبلات مُحبه إلا وجهها هي لقبلاته؟ ١٧٩

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين؛ الأولى: ناحية صفاته هو، فإن القلب إذا لم يكن بهيمياً منعكساً أشرق صفاؤه فيما حوله؛ فلا يرى إلا خيراً، وليست المرئيّ صفه الرائي فلا ينظر إلا جمالاً، واتصل الشعور الطيب الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذات النفس، كما يصل الشعاع الذي يُلقي على حائط من المصباح بين هذا الحائط وبين المصباح، فيُعشّيه النور وإن كان الحائط نفسه من الطين... فإذا كان القلب بهيمياً زائغاً عن الإنسانية إلى حيوانيته، استفاضت ظلمته وشهواته على ما حوله، فلن يشهد من صفات الجمال شيئاً، بل يرى في كل شيء من صفات نفسه هو؛ حتى ليكون الوجود كله في عين بعض الناس كما يكون الطعام كله في فم المريض... ومثل هذا يعشق أجمل النساء فلا يرى فيها جمالاً ألبتة، وإن هو خدع نفسه في ذلك، واختدع الناس، وإنما يرى شهوات، شهوات جميلة ليس غير!

أما القلب البهيمي غير المنعكس — وهو ذاك الذي تحمله البهائم، فلا يحتمل فيه عقل، ولا يحتشد فيه خيال، وما هو إلا أن ينصبَّ الحيوان به على محض المنفعة؛ لأنه عامل في الطبيعة، يُعدُّ من عمالها لا من شعرائها — فليس عنده جمال يقع في ظاهر الروح، وآخر يقع في باطنها، وثالث متوهم لا يقع ولا يتمتع أن يقع، ١٨ وليس يعرف من معنى القبح إلا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرض، فما تستقل إعياء وضعفاً، وبذلك سلّمت إناث البهائم من شرّ كثير يملأ لغة الحياة النسائية بمعانيه، وتجمعه كلمتان: الجمال، والقبح!

والناحية الأخرى التي ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشوهاة، ناحية الصفات الإلهية، فإن الحب الصحيح الذي يمكن أن يسمى حباً، لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق، وغيرها مما يُظهر البشرية على أتمها، وأحسنها في الشخص المحبوب كما يظن الناس خطأ، بل هو في عكس ذلك، أي فيما يخفي البشرية بمحاسنها وعيوبها جميعاً، ويظهر في أمكنتها خصائص الروح المحبوبة وحدها؛ فمن ثم يبدو لك شخص المحبوب على أي أشكاله وهيئاته كأنه تمثال سماوي وضع لروحك خاصة، فهو مجبول من مادة واحدة، هي مادة الفتنة، ولو كان في أعين الناس كافة تمثال الأرض السفلي، يصور كل ما تشتت فيها من القبح!

فإذا لم تظهر لك خصائص روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها، ويجعل كل شيء فيها ذا معنى منه، وكل معنى منه ذا معنى فيك، فما أنت من حبها في شيء ولو ذهب من جمالها بعقول الناس، ولا هي عندك من الجمال في شيء، ولو كانت في النساء كليلة البدر في الليالي، ومن أجل ذلك لا يخلو الحب من بعض معاني الوحي، ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية ١٩ في النفس التي تعشقها، وهل ملك الوحي إلا قوة المزج السماوي في نفوس الأنبياء، وهل روح الحبيبة إلا على قدر من مثل هذه القوة في نفس محبها؟ ولعل هذا يفسر لك سرّاً من أسرار احتراق في بعض الأرواح العاشقة التي تيمها الحب؛ فإن تلك القوة المزجية متى أفرطت على نفس رقيقة حساسة أذابتها، واشتعلت فيها فأكلتها أكل النار للهشيم، وتركبتها تحترق أسرع ما تحترق لتتطفئ أسرع ما تنطفئ!

...

(قال الشيخ علي): تلك هي الحقيقة يا بني، فلن يأتي لكائن من كان أن يقسم النساء إلى جميلات وقبيحات، إلا إذا طوى في ذلك معنى القسمة إلى شهوات جميلة، وشهوات قبيحة، ومتى انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطبة بلغة لا هي من لغة البهائم، ولا هي من لغة الإنسانية.

أفرأيت قَطُّ ألفاظَ الجمال والقبح تشيع في أمة من الأمم، وتعلو بالأعين عن النساء، وتنزل، ٢٠ وتمتد بها وتنقبض، إلا أن تكون أمة ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها، أو ضعيفة الدين قد اختلت أرواحها؟

انكشف القمر ذات ليلة لرجل اسمه «من عباد الله المقربين» ٢١؛ فإذا البدر أسود كالحبر، وإذا مكتوب في وسطه بالنور: «أنا وحدي»؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كل ضياء الشمس عليه أن يَسْوَدَ في عين الرجل الكامل الذي ينظر لروحه، فما الذي يمنع مَنْ ينظر لروحه وخصائصها أن تصير المرأة القبيحة في عينه كالقمر الأزهر؟

...

في البدر ظهرت كلمة الألوهية «أنا وحدي».

في وجه الحسناء تقرأ كلمة الألوهية «أنا وحدي».

فهل يمكن أن تقع الدمية من الحسناء أقبح ما يقع ظلام القمر من نوره، فلا تكون في وجهها هي أيضًا كلمة الألوهية «أنا وحدي؟».

...

لم يبق في البدر مع الحكمة العليا شيء يُسمى الجمال، ولا المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر؛ فهي مثله ليس فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال؛ أفيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيء اسمه «القبح؟».

...

القمر طالع مشرق كما كان.

والجميلة الحسناء لا تزال فاتنة.

والدميمة ظاهرة كما هي.

لم ينقص الكون من ثلاثتها شيء.

ولكن أين أعين الرجل الكامل؟.

(١) وضعنا كتاب (المساكين) على لسان هذا الرجل ليتعزى به أهل اليأس وأحلاف الهموم، وقد أفردنا لوصفه باباً في ذلك الكتاب، وحسبه أكثر القراء رجلاً مخترعاً كرجال الروايات، ولكنه كان رجلاً أشبه في حياته برواية، وقد توفي في سنة ١٩١٩، وظهرت بموته كرامات عجيبة شهدها الناس بأعينهم، ولم ينع أحد، ولا كان أحد يحفل به، ومع ذلك كانت له جنازة لم يعرف مثلها في بلدته وأحوازها، كأنما خرجت الحياة نفسها تشيع أصغر حي لتجعله أكبر ميت!

(٢) أكثر من ترى الناس لهم حظوظ الإنسان ولا إنسانية فيها، والشيخ علي لم يكن له حظ الإنسان إلا الجرعة واللقمة وغمضة العين!

(٣) رشاشة العطر، وهي ترجمة لكلمة "Vaporisateur"، ويسمى العامة «بخيخة العطر».

(٤) المكدس: الممتلئ عضلاً، والمعسوب: الشديد طي الجسم بعضه على بعض، ومن سوسه: أي من أصله وطبيعته، أو كما يقول العامة: (من عوده).

(٥) ما عظم من أصولها.

(٦) أي هنا وهناك.

(٧) هي القطعة من اللحم.

(٨) السفع: سواد مشرب بحمرة، والمراد به هنا فساد لون الوجه، وقبحه، وبشاعته.

(٩) السفساف: الدنيء، وأصله ما يتطاير من الغبار إذا أثير، ومن الدقيق إذا نخل لأنه أهونهما ولا فائدة منه.

(١٠) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه، ويقال: ركع للدهر وسجد، إذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراء ما به من الذل.

(١١) هي القمعة (بوزن ملكة): وجمعها قمعات (كمككات): من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة.

(١٢) كاد يفنيها الهزال! وتسمى الممصوصة.

(١٣) أي خبير بك وبما تبطن وتخفي.

(١٤) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون، وحالة الأعصاب متى احتاجت لأمر لا تكون إلا هكذا، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحب.

(١٥) كلمة تقال لتفخيم شأن الأمر، تشعر الذم ولا يريدونه، وأصلها: ويل أمه، ولكنهم يسقطون الهمزة، ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة، وترسم كلمتين إذا أمن الخطأ فيها.

(١٦) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الشهير، اختلف العلماء فيه اختلافاً كثيراً، ورمي بالكفر، وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة، وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة، وما زال التصوف كالحقيقة نفسها: هي موضع المعرفة، وموضع الجهل معاً. ومن أبدع ما قرأناه في ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشي، من أكبر علماء مصر في علوم الحقيقة والشرعية، قالوا له يوماً: ما لك لا تحدثنا بشيء من الحقائق؟ فسألهم: كم أصحابي اليوم؟ قالوا: ستمائة، فقال: انتخبوا منهم مائة، فانتخبوهم، فقال: اختاروا من هؤلاء عشرين، فاختاروهم، فقال: استخلصوا من العشرين أربعة، فكان الأربعة أئمة الجماعة: ابن القسطلاني، وأبا الطاهر، وابن الصابوني، وأبا عبدالله القرطبي، قالوا: فلما انتهى الأمر على ذلك قال الشيخ — رحمه الله — لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رؤوس الأشهاد لكان أول من يقتلي هؤلاء الأربعة! فتأمل غور هذا البحر، فما أبعد غوراً. وتوفي القرشي سنة ٥٦٤هـ.

(١٧) قلت: انظر قصة (قبح جميل) ج ١، ص ١٥٩ وحي القلم: للمؤلف.

(١٨) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون، وهي: إن الجمال إذا وقع في ظاهر الروح كان صباحة، وإذا وقع في باطنها كان فصاحة، فردنا عليها ما هو فوقهما مما لا يعرف إلا بالتخيل، ولا حقيقة له في الواقع.

(١٩) نسبنا إلى الجمع للخفة، وفرقاً بين هذه وبين النسبة إلى الملك (بكسر اللام)، فإنها ملكية (بفتح اللام).

(٢٠) يقال: علت العين عن كذا: أي نبت عنه نفورًا فلم تلتصق به، فاستعملنا منها «نزلت» كما ترى.

(٢١) هذا تهكم من الشيخ علي، يريد به طاشة فتياننا وفتياتنا ممن يرون الدين شيئًا قديمًا في لغة قديمة ومذهب قديم: فليهنأهم البلاء الجديد الذي حل من أنفسهم محل الدين، فجعل الرجل بلاء على المرأة إن تزوج بها أو أهملها، والمرأة بلاء على الرجل إن كانت له أو لنفسها، والوطن بينهما يقول: ما تقول جهنم لأهلها: لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا.

الفصل الثامن

الشيخ أحمد ١

والساعة أرى سحابي أصفى ما تمثّل لي وأرقّه، كالسما في صبيحة سارية ٢ إذا غسلها الليل، وأصبحت لابسة حريها من شفق الصبح الأحمر، وأراني أنظر إليه، وأهتف له، وأستشرق في ضوئه، كالطائر: لا يسعه جلده مرحًا، وتقلّبًا، وحنينًا متى أصبح من الليلة الممطرة إصباح الشمس، بعد أن أباته بيته كأنها في عُش السحاب.

وأشرق عليه صديقي هذا، ولا ومصرّف القلوب، ٣ إن ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذني من الحنين إليه ما لا يكون مثله لصديق ميت، بل لحبيب هاجر يشعرك موت الأيام كيف يكون.

كانت صحبتّه إياي من أطراف الطفولة إلى آخر الشباب إلى تخوم الكهولة، وهي أيام شبع العمر، لا يطعم فيها من شيء إلا طعم من لذة، وما بعدها من تقاصر الحياة، واختلالها إلا كأيام سوء الهضم؟

إذا كان في امرئ من الناس باق بعد شبابه، فما أشبه هذا الباقي في جانب ما قبله بنواة الثمرة الحلوة من لبابها: تنتهي فيما تأكل إلى النواة، ولكن بعد أن يكون أطيب ما في الثمرة قد انتهى، وتُفضي مما ينعصر في الريق حلاوة، ويسيل في الحلق لذة إلى بقية من الخشب رطبه أو يابسه، فلو كانت النواة من الذهب ما رجعت لك من ثمرتها رجعة. ٤

يا أيام الشباب! أنت وحدك نور الحياة؛ لأنك منذ الفجر، وأنت وحدك نهار العمر؛ لأنك إلى أن تصفرّ الشمس، وليس وراءك إلا كآبة الليل تتقدم ليلها باسمه في شفق المغرب!

يا أيام الصبا! أنت وحدك الحب؛ لأن فيك ما في العيون الحبيبات، أشخاصًا روحية ظاهرة بمعانيها الفتانة، فهي تلقي أشعة الجمال على كل ما تنتظر إليه.

يا أيام الرجولة الأولى! إن في زمنك وحده تحلّ السعادة في العقل، إذ يكون العقل في عهدك ما يكون الطفل في عهده: لغته تجري من معاني الدموع والابتسام والضحك، ولا يستدير به إلا الأفواه الحبيبة التي تُقبّله أكثر مما تزجره، وحتى لو ضرب لكان الضرب سببًا من أسباب تقبيله فيما بعد ...

يا أيام الشباب! أنت وحدك العمر، ومن بعد الشباب كل شيء يكون فيه من الماضي فعلٌ مستتر تقديره: كان!

يرحمك الله يا صديقي الكريم، تركتنا مُصعِّداً إلى الله في سُلَم كانت الأولى من درجاتها عتبة هذا البيت في مصر، وكانت الأخرى تلك العتبة الطاهرة من بيت الله في مكة.

وذهبت عنا، وما علمنا أنك طائر يُغطي تحت ريشه سرَّ الجاذبية العليا.

واستودعنا الله واستودعناك؛ فاشتبكت دموعُ في دموع، وما حسبنا أن أرواحنا تقيم من ذلك مناحتها قبل الفراق الأبدي.

وخاطبتك عند البين وخاطبتنا، وما عرفنا أن السماء كانت وتنتدّ تكلم الأرض من شفقتك بألفاظ لها ما بعدها.

ونظرت إلينا طويلاً تلك النظرة التي لا تكون إلا ممن يعرف حتى لا ينكر شيئاً، أو ممن ينكر حتى لا يعرف شيئاً، فإذا أنت تتكر من أعماق الأزل في تراب هذا العالم، ونحن لا ندري.

وسألنا الله أن يردك علينا أيها العزيز، فأثبت لنا أنك من أعز ما في الحياة حتى سقط دونك الأمل، فلا يتمنَّاك إلا الفكر وحده.

...

وذهبت إلى بيت الله متجرِّداً من الدنيا ليس لك منها إلا جسمك؛ لتخف إلى محبته ورضاه، فلما شاهدت التجلي الأعلى تجردت من جسمك أيضاً، واتصلت بنوره — سبحانه وتعالى — فلقد خلعت الدنيا مرتين، ومات بعضك في مصر، وباقيك في الحجاز، وخلصت روحك إلى ربها كما تخلص الجوهرة صافية مُتألِّنة بعد استخراجها من معدنها مرة، وصقلها للرونق مرة أخرى.

وأبى الله لروحك الطبية إلا أن تمرَّ في بيته قبل أن تمر إليه، فتسبح في نور الملائكة، وتتنسم ناحية مهيبها وهي تصعد أو تنزل بالرحمة على الحبيب، وتستضيء بتلك الشعلة القدسية التي أضاءت في الكعبة من وجه رسول الله ﷺ، ثم من سرائر أصحابه الطيبين، ولا يزال ضوءها هناك كضوء الكوكب مُلتَمِّعاً في سواد الحجر الأسود.

...

واختار الله لك بعد إذ انغمست في نوره أن تصعد إليه فلا ترجع من ذلك النور الأزلي إلى ظلام الدنيا، ولا تعود من النبع السماوي إلى حمأة الأرض، ولا تحل في بيت من بيوت الخلق بعد بيته هو، عز وجل!

واختار لك ما عنده على ما عندنا؛ فما في أيام هذه الحياة إلا غبارٌ يثور على غبار، ولا في الناس إلا أحجار تتحطم على أحجار، ولا في أخلاقهم إلا أقدار تنصبُّ على أقدار، ولا بين الحوادث والناس إلا كما بين الرياح والفقار، ولا بين الإخوان والإخوان إلا كما تجمع الأصفار من الأصفار ...

واختارك الله إذ اختار لك فما تركت (يرحمك الله) إلا علانية مشهودة، وسريرة محمودة، وآثاراً في الصالحات معدودة، وأفراحاً في شجرة الحياة كصغار الطير إذا رأت أباهما فارق عوده.

يرحمك الله، إن أول ما يشهد لك عند الله كعبته؛ إذ كانت آخر ما عرفت من الدنيا، وإن الذي يدخل السماء من باب الكعبة لحقيق أن تضع له الملائكة أجنحتها: سلاماً وتحية؛ فهنياً لك إذ فتحت باب السماء بتلك القُبلة الزكية التي وضعتها على أستار الكعبة، وهنيئاً لك إذ ذهبت لتقول: «لبيك اللهم لبيك»؛ فانطلقت روحك الطاهرة فيها، وكانت أول كلماتك في السماء! وهنيئاً لك، ثم هنيئاً إذ قطعت البحر والبر إلى خير بقاع الدنيا لتقول لله من هناك: ها أنا يا إلهي.

...

إن الحقيقة لا تسأل كيف يحيا الحي، ولكن كيف يموت، ولا تتعرف ما قدرته على الإقامة، ولكن ما قدرته على الرحيل، ولا تبالي ما قوته على الرسوخ كالجبل، ولكن ما قوته على الوثوب كالطائر! فهناك بين حدود الدنيا وحدود الآخرة موضع هاوٍ لا يتخطاه إلا ذو جناحين، قد اشتد كل منهما ووفي. ٦ وهناك متى انتهى الإنسان وجد عقله وضميره قد امتدًا من جانبيه كالجنّاحين، ورأى كل عمل من أعمالهما — في السيئة والحسنة — إما ريشة قد نسلها من جناحه، وإما ريشة قد أنبتتها فيه.

القدرة على جو السماء في جناح الطائر، وفي ريش هذا الجناح، وفي قوة هذا الريش، والقدرة على السماء نفسها في عمل الإنسان، وقيمة هذا العمل، وصحة هذه القيمة.

...

لسنا نبيكي عليك أيها العزيز، وإنما على أنفسنا؛ فإن ما أماننا لا يمكن أن يكون دنيا غير الدنيا، يُفتح لها تاريخ غير التاريخ، والحقيقة التي ضمتها ملايين «المجلدات» المحفوظة في القبور، ٧ هي بعينها لن تتغير ولن تتبدل؛ فإذا بكينا الميت فما بكينا ذهابه عنا، ولكننا نبيكي لبقائنا بدونه، كما اجتمع نفر من الغرباء في البلد النائي فيُخترم أحدهم، ٨ فما يروونه إلا معنى من أنسهم قد زال، ورُكنا من قوتهم قد مال، وجانباً من نظامهم قد أفسده الاختلال! وما دام في الأرض باك على ميت، فالأرض دار الغربة لكل من عليها، وهي لن تكون وطناً لمن سيفارقها إلا إذا عُد بطن الأم وطناً لابنها.

من وطن الأشهر المَعْدودة ينحدر الإنسان إلى وطن السنين المَعْدودة؛ أما الأزل والخلود، والوطن الإنساني الكبير، فهناك هناك حيث لا تساوي كرة الأرض بما فيها أكثر مما تساويه ذرّة من التراب تُصعد أو تهبط.

وهذا الذي نكرهه عقلاً من أمر الدنيا الذي نرانا مُضطرين إلى أن نعقله كرهاً شئنا أو أبينا.

فابكي أيتها الأعين الإنسانية، وتهيني للبكاء ما دمت باقية؛ إن تيار هذا البحر الذي تنصب فيه الأحزان لا يعب من دموعنا ٩ التي نبيكي بها المكابدة الموت، ولكن من دموعنا في مُنازعة البقاء.

...

لهفي لذكره صديقاً كانت لنفسه العالية كالنجمة وهبت قوة النزول إلى الأرض، وحبباً لو انقسمت روعي في جسمين لكان جسمها الثاني.

كان دائماً كالذي يشعر أنه لا بد ميت، وتارك ميراث مودته، فلا أعرف أنني رأيت منه إلا أحسن ما فيه، وكأنما كان يضاعف حياتي بحياته، ويجعلني معه إنسانين.

وكان له دينٌ غرض كعهد الدين بأيام الوحي؛ لا تزال تحته رقعة قلب المؤمن، وفوقه رقعة جناح الملك يُخالط نوره القلوب.

وكان حيناً صريح الحق، ترى صدق نيته في وجهه، كما يريك الحق صدق فكره في لسانه؛ سامياً في مروءته ليس لها أرض تُسفلُ عندها، ١٠ وإنما هي إلى وجه الله فلا تزال ترتفع؛ ودوداً لا يعرف البغض، مُحباً لا يتسع للحقد، ألوفاً لا يسر الموجدة على أحد!

وكان رحيب الصدر كأن الله زاد فيه سعة الأعوام التي سينتقصها من حياته، ففي قلبه قوةٌ عمرين، وكان طيب النفس، فكأن الله لم يمد في عمره طويلاً؛ لأنه نفى منه الأيام الهالكة التي يكون فيها الإنسان معنى من معاني الموت. ١١

...

آه لو عرف الحقُ أحدُ لما عرف كيف ينطق بكلمة تُسيء، ولو عرف الحب أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة تسر، ولن يكون الصديق صديقاً إلا إذا عرف لك الحق، وعرف لك الحب!

لا أريد بالصديق ذلك القرين الذي يصحبك كما يصحبك الشيطان: لا خير لك إلا في معاداته ومخالفته ... ولا ذلك الرفيق الذي يتصنع لك، ويماسحك متى كان فيك طعم العسل؛ لأن فيه روح ذبابة ... ولا ذلك الحبيب الذي يكون لك في هم الحب كأنه وطن جديد، وقد نفيت إليه نفي المبعدين ... ولا ذلك الصاحب الذي يكون كجلدة الوجه: تحمرّ وتصفّر؛ لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها؛ فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبداً إلا على أطراف مصائبك، كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدئ المصيبة، لا من أين تبتدئ الصداقة، ولكن الصديق هو الذي إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمل فيها، وإذا غاب أحسست أن جزءاً منك ليس فيك، فسأترك يحزنّ إليه؛ فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك، وإذا تحول عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود، وإذا مات ... يومئذ لا تقول: إنه مات لك ميت، بل مات فيك ميتٌ، ذلك هو الصديق.

وكنا ذات يوم على شاطئ النيل، وبزغ الهلال كأنه إصبع ملك من الملائكة، خرقت ستار السماء لتحدث فيه ثقبا تنظر منه إلى نجمة ستهوي؛ فقلت له: هذا الهلال ما انفك يتلقى نور الشمس منذ خُلِق، وهو في نفسه مظلم أبداً، ولكنه من صحبته للنَّير قد أثار، وصار مع الشمس شمساً بيضاء، فما أكرم الصداقة من نعمة لو أصابها المرء على حقها فيمن خُلِق لها! كان أهل الكيمياء القديمة يسمونها «علم زراعة الذهب»، وأنا أسمى كيمياء الشمس في هذا القمر «زراعة الفضة»، فماذا تسمى أنت كيمياء الصداقة في معادن القلوب؟

قال: أسميها «زراعة الخير».

قلت: فإن لم يُنبِت، وأكله لؤم أرضه ...؟

قال: ذلك إلى الله لا إلينا؛ فإن في هذا الوجود قانوناً دقيقاً للخيبة لا يتسامح في شيء، وما يعرف منه الناس إلا حُكمه حين يقضي فينفذ قضاؤه بدرك الشقاء. ألا إنه ما من الخيبة في الحياة بُدٌّ؛ فإنها ردُّ الأقدار علينا حين تقول «لا»، وهذه الخيبة هي العلم الذي موضوعه أن يعلم هذا الإنسان المغرور أنه شيء في الحياة، لا كل شيء فيها، فإذا كذبتك صديقك مما قبله، وغمك بكثرة خطئه

وزله؛ فلا تزرعه مَقَنَّاً وبغضاً بعد أن زرعتَه خيراً وحبًّا، ولا تقطعه، بل انتظر فيَّاته، ١٢ فإن فتنة الصدر غامضة، ولقد يكون أشد البغض من أشد الحب، وليس لنا مع سفن القلوب إذا اختلفت رياحُها، وهبت عواصفها إلا أن نطوي الشراع، ولكن إلى وقت.

فإذا جهدك البلاء من صاحبك، وبلغ منك اليأس، فما يسوغ لك أن تكون معه إلا كالذي حفر الحفرة، ثم طمَّها بترابها، ١٣ ألقى فيها ما كان فيها من قبل، ومضى كأن لم يكشفها!

قلت: آه! فإذا كانت الحفرة من شرها في عمق البئر ذاهية إلى الأغوار البعيدة، أفأقضي شطر العمر أُرَدَم فيها بعد أن قضيت شطره أَحْفَرُ منها؟

قال: فمن ذا جعلها بئراً سواك؟

قلت: ولم لا أدعها بئراً خسيئة؟ ١٤ يلعنها عمقها الغائر فيها بأنها فارغة مظلمة، ويلعنها ترابها القائم عليها بأنها متروكة مهملة؟

قال: سبيل الفضيلة غير هذا؛ فكن مع الناس في حال تُشبه محل نفسك لا محل أنفسهم، وما أنكر أن من الناس من يوقعون في نفسك الظنَّة ١٥ بَكَيْت وكَيْت من سوء خلقهم، وكذا وكذا من قبح أعمالهم، حتى لتكون صداقة أحدهم كأنها نصف معركة حربية ... ولكن الهزيمة عن صديقك وأنت صديق خير من النصر عليه وأنت عدو ... فتحصن من كيد هؤلاء، وأشباههم بالانهزام عنهم لا بمدافعهم؛ فذلك إن لم يقعدهم عنك لم يلحقهم بك، ثم إن ردك إليهم رادُّ بعدُ كنت الأكرم.

واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان: الصبر على الصديق حين يغلبه طبعه فيسيء إليك، ثم صبرك على هذا الصبر حين تغالب طبعك لكيلا تسيء إليه!

وأنت لا تصادق من الملائكة؛ فأعرف للطبيعة الإنسانية مكانها، فإنها مبنية على ما تكره، كما هي مبنية على ما تحب، فإن تجاوزت لها عن بعض ما لا ترضاه ضاعفت لك ما ترضاه؛ فوفت زيادتها بنقصها، وسلم رأسُ مالك الذي تعامل الصديق عليه!

...

قلت: فإني لا أعني ذلك الذي أضع «رأس» المال بيني وبينه، ولكن شخصاً آخر وضعت «قلب» المال بيني وبينه ...

قال: فهنا إذن! وما هنا صارت الحفرة بئراً ... ولكن أفتني فإني لا أعرف هذا الذي تسميه الحب: فهل بين النفسين شيء غير الصداقة؟

قلت: هو هي إلا فرقاً واحداً.

قال: إن كان واحداً فلقد هان، فما هو؟

قلت: الفرق بينهما أنك ترضى أن يكون الصديق لنفسه أكثر مما هو لك، ولكنك لا ترضى إلا أن يكون الحبيب لك أكثر مما هو لنفسه.

قال: فذاك رِقٌّ لا حب.

قلت: وهذا هو الذي يجعل الحفرة بُزْراً، فالصداقة في المودَّة تجذب الطبع من الطبع ليتفقا، ولكنها في الحب تجذب الطبعين ليكونا دائماً عند النقطة التي يتناقضان منها، وأعظم ما يسوءك من الصديق لا يزيد على أن يردك إلى نفسك وحسب، ولكن أيسر ما يغضبك من الحبيب يسلط نفسك عليك بسوء التحكم، والإعنات، والآراء الفاسدة، حتى يترك دمك، وكأنه تيار من الغيظ، فإذا حبيب نفسك أعدى أعدائها، وإذا هو قد أصبح العدو؛ لأنه لا يزال الحبيب!

قال: أما إن هذا تعقيد على النفس، وهو العلة في أن المحب المَغِيظ لا يسكن غيظه، ولا يهدأ فُورَه؛ لأنه يحل العقدة الواحدة بطريقة تجعلها عقدتين، ولكن ... أوليس خيراً لك إذا أنت دُفعت إلى العداوة في الحب أن تستشعر بكرم الملك الذي في نفسك لوم الحيوان الذي في صاحبك، فترجع بنفسك أنت إلى ملكيتها، وترده هو إلى حيوانيته؟

أما إنني أعرف لأهل الحب دواءً ما يمرض بعده رجل من امرأة أساءت إليه: أيها العاشق، أما صدمتك بهيمة من البهائم، أو رمحك، ١٦ أو جمحت بك فأوجعتك بلا غيظ، وأساءت إليك بلا حقد، وكسرتك بلا انتقام، ولم يتعاطمك من أمرها شيء في الوهم، ولا في الحقيقة ... ألا ويحك، ألبسها جلدها وحوافر ١٧ ... ولا تتمثلها في مخيلتك إلا وجهاً جميلاً على جسم حيوان؛ فإنك إن تفعل ذلك، وتأخذ نفسك به: تطمس عليها في محبتك طمساً، ولا تجد لها في قلبك إلا النفرة والاشمئزاز، وتُعجز فيها الشيطان، لا يدري من أين يأتيك، ولا كيف يتدسّس بها إلى دواهيك، ما دام لها عندك الجلد والحافر ...

ولعل الناس لم يعتادوا فيما بينهم أن يتنازوا ويتسابوا في عبارات السقوط، والتحقير بأسماء من أسماء البهائم: كالكلب، والخنزير، والحمار — إلا على هذا الأصل الذي بينته لك، توحى به غريزة الكراهة، والسقوط من حيث يدرون أو لا يدرون.

الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصداقة وأسفلها؛ ألا ترى أنه ما دام الحبيبان على أسباب الرضا فكلاهما أو أحدهما يتمثل الآخر كما يتمثل ملكاً من الملائكة، بل ويسميه الملك الحارس، أو الملك الموحى، أو الملك المقدس.

فإذا صار إلى الخلاف، واستحكم بينهما، لم يُغن طلب المعاذير تنعزى بها الصداقة! ولا طلب العثرات تشتدُّ بها العداوة، وليس للمغيظ منهما شيء دون أن يعمد إلى تلك الصداقة؛ فيجعل عاليها سافلها، فلم يبق حينئذ إلا أن يكون صواب الحب في هذه الحالة قائماً على عكس الحالة الأولى؛ فما كان في صورة ملكية ليثبت عليه الحب وجب أن ينقلب في صورة حيوانية ليزول عنه الحب.

...

يا من أسكره الغرام، إن عربد حبك فاحطم كأسه، وأرقِ خمرها، ولا ترها إلا سماً، فإن أكبر البلاء على السكير أن يُلبس الحقائق المهلكة أثواب زينتها، فيزعج بينه وبين نفسه أنه لا يشرب الخمر، ولكنه ينقع غُلة أحزانه بكأس من ماء السرور! ولا يتوَحَّل في السكر، ولكنه يستمطر على خموله سحابة النشاط، ولا يتجرع الجنون، ولكنه يذيب همومه في جرعة من النسيان ...

ألا ما أصدق الخمر في السُّكْرِ وهي صامئة، وأكذب السكير على الخمر وهو يتكلم!

هوامش

(١) هو الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الرفاعي ابن عم الكاتب، وصديق نشأته، ورفيق شبابه، والكاتب خال أولاده، ذهب — رحمه الله — يقضي الحج، فأفضى إلى ربه من هناك، ودفن بمكة.

(٢) صبح ليلة فيها مطر، والسارية: السحابة تمطر ليلاً.

(٣) هذا قسم، وكان أكثر ما يقسم به النبي ﷺ.

(٤) الرجعة: ما تسترده مما فات.

(٥) هم الحجاج.

(٦) طار ريشه.

(٧) كناية عن الناس.

(٨) يهلك بجائحة من الجوائح.

(٩) أي لا يتدفق.

(١٠) كناية عن أنه لا ينحط فيها، ولا ينزل سفلًا.

(١١) كأيام القطيعة والعداوة والكيد، ونحوها مما يجعل أعمار الناس أقصر مما هي!

(١٢) الفياة: الرجعة، كما يدور الظل، ثم يرجع إلى مكانه.

(١٣) ردمها وغطاها.

(١٤) أي منخسفة عن الأرض.

(١٥) الظنة: التهمة، تجد من أخلاقهم وأعمالهم ما تنهم صداقتهم به ...

(١٦) رمحت الدابة: رفست.

(١٧) تحسب هذه العبارة ستجري بين المحبين مجرى الأمثال، فإذا شكا إليك محب يريد السلو ولا يطيقه، فاختصر علم النفس كله في قولك: «ألبسها جلدها وحوافرها».

الفصل التاسع

الشيخ محمد عبده

وشفَّ سحابي عن جلال رائع يضطرب القلب له! أذكرني روعة السحاب التي كان يهبط فيها ملك الوحي، ليست في نفسها آية، ولكن الآية فيها.

وظهر لي وجه الشيخ، وما أدراك من الشيخ؟ ثم ما أدراك من هو؟ رجل كان في تركيب العالم الإسلامي أشبه بالجبهة من جسم المؤمن: هي مجلى نور الإيمان، وأعلى ما يرتفع للأعين، ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من هذا الجسم كله!

خُلِقَ فصيحاً مُبين اللهجة؛ لأن لسانه أَعَدَّ لتفسير معجزة الدنيا في هذه اللغة، فكان لسانه — ولا عَرُو — معجزة في الألسنة، وكان له بيان ينبث من طبعه المصقول كالشعاع الذي توامضك به المرأة إذا انقذت جمرة الفلك عليها. ٢

وكان له عقل لو وزن في رُجحانه لُعدَّ بين العقول من موازين التاريخ، وقلَّب إن يكن في جنبه كالقلوب التي وُضعت على منحدر المعاني الأرضية، فإنه كان دون القلوب على مهبط السماوات. ٣

رجل لم يُخلق من قبل زمنه؛ لأن الأقدار المصرفة ذخريته للقرن الرابع عشر تجعله وأصحابه النهضة الثالثة في الإسلام، ٤ وكتبت له أن يكون الكنز الثمين الذي يُفجأ العالم بانكشافه؛ ليعود القديم المبدع الذي كاد يُنسى؛ فيتمكّن في الأرض بأسلوب جديد، وما يدريك، لعل هذا الحكيم الفذ في علمه وعمله، وذكائه وإصلاحه سيكون التمثال العقلي المشرف على الأجيال، يفصل في تاريخ الإسلام بين ثلاثة عشر قرناً مضت، وثلاثة عشر قرناً تأتي؟

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده، على بُعد عصره من فجر الإسلام؛ فكان يحمل في رأسه ذهنًا كآلة اللاسلكي، تهبط عليه من أقاصي الدهر شرارة النبوة، فإذا تكلم في آيةٍ رأيتَ كأنما تتكلم الآية نفسها على ملأ العقل بين مشارق الأرض ومغاريها.

ولست أدري على أي روح نبت هذا الرجل؟ ولكن الذي أعرفه أنه حين أثمر فنضج فحلاً، أذاق الناس من ثمره طعم معجزة الفكر العربي.

...

نظرتُ إلى عينيهِ ذات مرة فخيّل إليّ أن فيهما رهبة الأسد حين يجلي بنظرة كبريائه ليدل على أنه الأسد لا غيره، فمددت النظر إليهما، فإذا روعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا، وإذا أنا ألمح فيهما ذلك الشعاع الغريب الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السر الكامن في العقول، والسر الكامن في العقل، وكأنه استشعر ذلك فتبسّم، فكان لنظرته جلال سماوي رحيم، أشرق على نفسي كما تُشرق على روح الطفل ابتسامة أصله الإنساني. كان منطوياً على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها في عينيهِ، وينتشر على ما حوله، فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل، ولكن مع النفس العالية التي هي فيه؛ ٦ وكان أعظم هيبة من الملوك؛ لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان، والمواكب، والأسلحة، وكثير من ضروب التوقير والتعظيم، أما الشيخ فكنت تراه حيث رأيته كالمحراب حيث يكون: لا يقف عنده إلا من وقف ليتخشع، وما ذكرته إلا ذكرت قول القائل: في هذه الصورة الأدمية آدم، والملائكة له ساجدون!

كان هذا الإمام الفذ في قوة من ربه كقوة الجبل؛ يحمل ما يحمل، ولا يتلوى، وفي سعة من طبعه كاستفاضة البحر؛ يغمر ما يغمر، ولا يتغير، وفي صراحة من نفسه كاستطارة النهار؛ يطلع كما يطلع، ولا يخفى، فهو رجل، لكنه فكر من أفكار السماء، وهو جسم، لكنه عضلة من عضلات الطبيعة، وهو إنسان، لكنه حقيقة من حقائق الكون.

يصفه الناس بأنه الرجل الحكيم الذي أتى سر الحكمة لينبئ به، ويصفه التاريخ بأنه الحياة المجددة التي وُهبَت سر العظمة لتعمل لها، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسر الذي اتصل به طرف السر الأعلى ليتكلم عنه، وليعمل له، ولينبئ فيه.

إذا كان في بعض جوانح الأرض أمكنة نادرة مقدسة هي قلب الدنيا الذي أودعه الله سر التآله، ففي بعض جوانح الناس قلوب نادرة هي كذلك الأمكنة، ولقد كان العالم الإسلامي كله يتصل من قلب الشيخ العظيم بمنسك ٧ فيه معنى كمعنى الكعبة إذ تُؤلّى شطرها كل وجوه المؤمنين.

...

وأما بعد: فكأنما أفرط عليّ القلم فيما كتبت عن الحب؛ فإنه يخيل إليّ الساعة أن روح شيخنا الجليل تريد أن تغسل هذا الكتاب كله، وتدعه ورقاً أبيض، ٨، ويخيل إليّ كذلك أنني كنت ماضيًا فيما أكتبه كما تتعكس الأفعى ٩ في مشيتها، إذ يندفع نصفها ليجرّ النصف الآخر، فلا تدري إن كان آخرها معلقًا بأولها، أو الأول هو معلق بالآخر.

وكذلك كنت أكتب، فمرة أجد الفكر يجرّهُ القلب جرًّا، ومرة أجد القلب ينسحب للفكر، وبين ظهري ذلك ١٠ أراني ساعة ممتلخ القلب، وساعة مدله العقل ١١ كأنني لم أحب إلا لأتحول رجلًا شاذًا، تراه في الحب والبغض، وفي الصواب والخطأ، وفي الفكر والحس، على حدّ مما يعرف، وحدّ مما لا يُعرف، فليس كله من هذا، ولا كله من ذاك، وهو محب إلا أنه يبغض، ومبغض لكنه يحب!

إن زفرة من جهنم، ونفحة من الجنة جاءتا إلى هذه الدنيا، فرأنا من حُبث الناس بدعًا مبدعًا ١٢ حتى لا يخلصون بأعمالهم إلى جنة ولا نار، فلا هم من أهل هذه وحدها، ولا أهل تلك على حدة، فاختلطت نفس الجنة بزفير النار، وامتزجا حرًا يستوقد الضلوع ببرد تتلجّ عليه الصدور، واجتمعوا نعيمًا ببؤس، وراحة بتعب، وسرورًا بهم، ثم وقعا في القلوب معًا، فإذا هما الحب!

كذلك توحى إليّ روح الشيخ.

أنت يا هذا إن أحببت امرأة فهي كما تنثر كل ما فيك من الكمال تُنبّه كل ما فيك من النقص، بيد أنها تجعل هذا النقص عُلوًّا، وهو أفسد له، كالزوبعة إذ ترتفع من الأرض خَلْقًا مارِدًا من الغبار ملتقًا بالنور، ذاهبًا إلى السماء، فيكون ارتفاع الغبار شرًّا طائرًا لم يكن في الغبار الساكن ... أفتحسب أن حبك إياها هو الحب؟ كلا بل هو بادئ الأمر حُبُّك أن تُعجب بك، ثم يزيد فإذا هو الحب أن تميل إليك، ثم يبلغ فإذا هو حبك أن تخضع لك؛ هذه ثلاث كلهن مفسدة، فإن هي أدّت في رجل واحد من الإنسان إلى فضيلة واحدة أدت إلى ألف رذيلة في ألف رجل من هذا الحيوان. ١٣

كل شيء يمكنك أن تضع ضميرك في أوله فتمضي فيه على بصيرة، إلا هذا الحب؛ فإن ضميرك لا يأتي موضعه فيه إلا آخرًا، فإذا أنت أردت أن يحكم قلبك على من تحبها، وأن تأخذ عليها حكم قلبها، ١٤ فإنما تريد بنفسك الألم لا الحب، تريد أن تستوحي الدموع، وتخرج منها كلامًا يبكي، تريد أن تزدرع شجرة الجنون التي ينبت فيها زهر الشعر ... وهذا لا يسمى حبًّا لحبيبة، ولا يؤمن إلا على كبار الحكماء، كما لا يؤمن فحص الآلة المهلكة ... إلا على كبار العلماء والمخترعين!

أنت يا هذا إن أحببت خاضع لقلبك، ولكنك أنت وقلبك سائران في طريق قلبها ... يقول كل محب في حبيبته: لا هي إلا هي، أفلا يدل ذلك على ضلال الحب، وإفساده ملكة التمييز، وأنه شيء من الخَبَل يعترى فكرة بعينها في العقل، ويُخرجها إلى الهَوَج والتبلة؟ وإذا ساع لكل محب أن يقول في صاحبه: لا هي إلا هي؛ فمعنى ذلك أن (الهيئات) ... كلهن عبث وباطل، وتكون الحقيقة الطبيعية التي يصرّح عنها هذا القياس، أن كل (هي) مثل كل (هي) في الواقع، ولا انفرد لها إلا في عقل مجنون لا مساك له من المنطق، ولا عبرة به في القياس.

من أعجب الأمور أن الصفات التي يُعدُّ بها الإنسان إنسانًا تخضع كلها أحيانًا لصفة واحدة من تلك الصفات التي يُعدُّ بها الإنسان حيوانًا، فإن خدعك بائع مثلاً في دراهم معدودات، لا تُمض الأمر على أنه خدعك، بل تعرف أنه غشك، ثم لا ترى أنه غشك، بل ازدراكك، ثم لا تقول إنه ازدراكك، بل تهزأ بك، وهذه حركة للنفس في اندفاعها إذا تُركت تندفع، وتُركت المعاني الغضبية تخوض في دمه.

ومن ثم فلا يكون البائع في رأي نفسك قد سلبك بعض الدراهم، بل شيئًا من القوة التي بها حولك وحيلتك، ومن الذكاء الذي تعامل الناس عليه، وسلبك بعض الشأن الذي يجعلك رجلًا ذا بصر ومعرفة، وعلى قدر ما يتحرك من ذلك في نفسك يتحرك من الغيظ والحدق إن كنت رجلاً داهيةً ذكيًا، وبخاصة إذا رأيت البائع لا يبالي أن تعرف أنه تغفلك، بل يجعل من همّه أن تعرف ذلك؛ فلا تعود الدراهم أشياء كما هي في نفسها من ضعف الخطر والقيمة، بل كما هي في نفسك مما وُضع أمرها عليه؛ فلا تنحط قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس، وتلتحق بمعاني القهر والغلبة، وما كانت إلا من بعض معاني الربح والخسارة.

وعلى هذا المثل يقاس أمر الحب ونكده وجنونه؛ فما هو على قدر المرأة، ولا بمقدار مما تعطيه، وإنما هو استخذاء المعاني الإنسانية، وخضوعها لصفة حيوانية واحدة ينصرف كل ما في هذا الإنسان إليها، والأمر بعد كما قال أحد الأطباء في تعليل الجوع

إذ قال: إن المعدة متى خَوَّت، ١٥ وفرغت من طعامها الذي كان فيها بعثت أعصابها الباطنة برسائلها العصبية إلى ساقه المخ، ١٦ وإلى مركز الأعصاب في العمود الفقري؛ تؤذنه بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر. قال: فتترجم مراكز الأعصاب السفلى هذه الرسائل إلى جوع ...

وقل أنت مثل ذلك في القلب، فإنه متى وقعت امرأة من حاجته موقعاً، ظمئ إليها؛ فأرسل رسائله العصبية إلى المخ بأنه من الواجب ... إطفاء هذا الغليل المحرق، فتترجم مراكز الأعصاب هذه الرسائل إلى حب!

وأنت أعلى عينا ١٧ بأن هذا كله نقلٌ للمعاني الحيوانية إلى اللغة التي تحرك النفس فتُلجئها إلى تسخير قواها في دفع الألم إن كان حقيقة أو خيالاً؛ فإذا أضلعتك أمر الحب، وضقت به، وعجزت أن تصرف القلب عن رسائله، فاشغل العقل عن ترجمتها، وأحكم معاقب هذه الخيالات ومقاصدها، وازدِر تلك الحيوانية، وأبقِ الدرهم على قيمته ... ولا تحسن المرأة مطيعة أكثر مما فيها، ولا تتوهم أحسن ما يبدو لك منها إذا سَحَرَتْ به على عينك إلا صورة مسحورة من أقبح ما فيك أنت، فإن قررت في نفسك هذه القواعد، وأجريت عليها ما يترجم لك العقل من رسائل القلب، جاءك من هذه الرسائل الحكمة، والفلسفة، والكبرياء، والأنفة، أو الصبر والأناة، وخضت الغمرة ١٨ بذراعين فيهما السباحة والنجاة، لا الاختباط والغرق!

كذلك أوحى إليَّ روح الشيخ!

...

في منطق الحس: متى وُجدت الأسباب جاءت النتيجة من تلقاء نفسها؛ لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدماً، فاحذف الأسباب تسقط النتيجة، ولكن الأمر عكس ذلك في منطق الحب: احذف النتيجة تسقط الأسباب كلها، فإنك إن لا تفكر في لذة ترجوها، أو تحرص عليها، نسيك الحب قبل أن تنساه، وهل علمت قط عجزاً تُعشق لأنها عجوز ليس فيها إلا حطام العمر، أو عرفت إنساناً يَخدس عليها ظناً من ظنون الحب، أو يصل بها سبباً من أسباب المطمعة؟ أما إن هذه الفانية منطق سقطت نتيجته فلا يمكن في الطبع أن تقوم أسبابها؛ فإذا أنت محقت النتيجة وخیالها لم يبق بينك وبين المرأة ماسة ١٩ منك أو منها، واستحالت إلى منظر من مناظر الجمال يُفهمك أو يُلهمك أو يفسر لك، فلا تنزل منها منزلة الرجل، بل منزلة الفكر، ولا تكون هي منك بمقام المرأة؛ بل منزلة المعنى!

المصائب والنساء من شقاء الشقي أن يبالغ فيهن؛ فإن ما ينالك من خوف المصيبة ليس منها، ولكنه منك، وما يذهلك من حب المرأة ليس فيها، ولكنه فيك؛ فأنت من ذلك كالذي ينحت صنماً من الحجر، ثم يصله بمكان الرغبة والرغبة من نفسه، فإذا القدرة كلها قد استفاضت عليه، وإذا الحجر الذي لا يملك ولا حشرة من حشرات الأرض قد تملك رجلاً بعقله وقلبه وحواسه وحيزه من الدنيا، وإذا هذا الرجل يتعبد بحقيقته لخياله، وبعقله لوهمه، وبعلمه لجهله، وبما يصدق فيه لما يكذب عليه، ولا يبقى الحجر حجراً، ولا يبقى الرجل رجلاً، وكذلك يصنع عاشق المرأة بالمرأة، وهي عند نفسه كأنما نبت جسمها على صنم معبود؛ يحسب فيها السماء والجنة، وما فيها أكثر من امرأة، ويكون منها في الحب والرضا كحجر الألباس: يلقي عليه الضوء لوناً واحداً فيخرجه من قلبه ألواناً ذوات عدد في بريق وبصيص، وفي البغض والنفرة كالجسم المحترق: تحوّل كله ناراً من شرارة، أو جمرة، أو شعلة، وهو في كلتا الحالتين يُسر وبألم بمادته كلها لقليل طراً عليه من مادتها هي، فهي شيء واحد، ولكنها بمادته تنقلب جمالاً ملء عينه، وفنتة ملء صدره، وفكراً ملء عقله، وكذا وكذا مع هين وهين وهنات. ٢٠

إنما هذه سبيل اللذات في الأنفس المريضة التي تزلف بما فيه لذتها إلى ما فيه هلكها، ولا تُكسبها اللذة شعوراً إلا لتسلبها شعوراً غيره، ولا تهيج فيها خيالاً إلا لتطمس به على حقيقة، ولا تبتعث حرصاً إلا لتغلب به على قصد؛ فالخمر فيمن يُبتلى بها تسلب الشعور بفضيلة العقل، لتُنشئ اللذات الخيالية التي هي من بواعث الجنون، والمال فيمن يحرص عليه يستلب الشعور بفضيلة الخلق يُحدث له اللذات الوهمية التي هي من بواعث السقوط، والمرأة فيمن يُمتحن بها تنتزع الشعور بفضيلة التمييز؛ لتؤتبه اللذات الغريبة التي يكون منها الجنون والسقوط، وضرب من هذا، وضرب من ذاك!

ولن تجد كل جرائر الحب إلا متفرعة من هذين الأصلين، فهي بجمالها داخلية في باب سلب العقل بعضه أو أكثر، وفي باب سلب الخلق بعضه أو كله.

وفي النفس الإنسانية لا تمرض الحقيقة إلى من سوء التخيل فيها، كأن نعمة الخيال إنما وهبت للإنسان لتخرجه من حدود الحقائق؛ فيفسدها، ويفسد آثارها فيه، فتقلب من مادة شقائه، وهي مادة سعادته! فالخيال هو القوة التي يثبت بها الإنسان إلى المجهول، وهو نفسه القوة التي يسقط بها إذا تقاصرت الوثبة، أو طاشت، وقلما جاءت إلا من هاتين، والخيال هو العنصر الذي تبرزه بالحقائق ليحدث فيها التتويج؛ فيخرج ثلاث حقائق من اثنتين، وهو نفسه العنصر الذي يستخرج الضرر الكامن في هذه الحقائق متى أسرف عليها، فيخرج من المنفعة الواحدة مضرّتين: للحقيقة وللإنسان معاً!

فالمنهوم الذي ينتهي بطنه، ولا تنتهي نفسه، ٢١ والحريص الذي يفرغ عمره، ولا يفرغ أمله، والفاجر الذي تذهب مروءته، ولا تذهب لذته، والمدمن الذي يسقط عقله وخياله لا يزال يعلو، والمقامر الذي لا ينفك يطمع في الغنى وهو فقير حتى من الفقر ٢٢ ... كل واحد من هؤلاء مريض بمرض خيالي واحد، أما الذي هو مريض بشيء من كل شيء، فهو العاشق المريض بامرأة يهواها!

وهل في شقوة الخيال، وشدة غلوائه أعجب من خيال هذا العاشق؛ إذ يرى الجمال المخلوق كله لا يبلغ مبلغ القبلّة الأولى التي لا تزال في شفتي حبيبته لم تخلق بعد؟

المرأة في النساء امرأة، كالواحد في العدد واحد، بيد أن خيال العاشق يرقم إلى هذا الرقم الفرد صفًا طويلاً لا يراه أحد غيره، فالواحد اسمه واحد، ومعناه ملايين كثيرة ... وبهذا يصبح العاشق مع المرأة الخيالية كالنسر حطمت مخالبه، وصدع منقاره، ونُسل جناحاه، فاسمه نسر، ومعناه دجاجة ...

أفّ للشعر! يعلو بالأشياء كلها علو الأسرار الإلهية التي فيها، ويعلو بالشاعر على كل الناس؛ إذ كان فيه من روح الله أكثر مما فيهم، ثم لا يكون عقابه على هذا التآله إلا أن يرمي بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمي امرأة إن كان في الشاعر روح رجل تام، أو بين سفلة الخلق، وسفاسف الأشياء، إن كان الشاعر مؤنث النفس أو ساقطها.

آه ... آه! إن الله لا يُعَمِّ قَلْبًا في الدنيا على أسلوب النعيم في الآخرة، ولكنه ترك للناس أن يعذبوا أنفسهم هنا على نحو مما هنالك، فكما طفت لهم نار أوقدوا غيرها يحترقون فيها ليذوقوا العذاب لا ليموتوا!

إن لنار الآخرة سبعة أبواب، وكأن كل باب منها ألقى جمره على الأرض، فباب ألقى الوهم، وآخر قذف الخوف، وثالث رمى بالطمع، والرابع بالحرص، والخامس بالألم، والسادس بالبغض، أما السابع فرمى بالشر الذي يجمع هذه الستة كلها، وهو الحب!

النار في الآخرة، ولكن أرواحها في الناس لتسوق أرواح الناس إليها!

هوامش

(١) قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن مَ أَدْرَاكَ فقد عقب ببيانه: نَحْوَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ؛ وكل موضع ذكر فيه وَمَا يُدْرِيكَ لم يعقبه بذلك، نحو: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ قَلْنَا: وهذا من أدق معاني الإعجاز، فإن أَدْرَاكَ صيغة الماضي، والماضي مكشوف معروف؛ لأنه وقع، ولكن يُدْرِيكَ صيغة المستقبل، والمستقبل محجوب؛ فتأمل وكرر النظر، فإن المقام لا يتسع هنا.

(٢) كناية عن الشمس. وتوامض: تبرق.

(٣) ليس همه إلا المعالي، ومصالح الخلق.

(٤) نهضة الأخلاق زمن الصحابة والتابعين، ثم نهضة العلم من بعدهم، ثم نهضة العقل الإسلامي التي كان يدعو إليها الشيخ، رحمه الله.

(٥) أي يرفع بصره، وينظر نظرتة الشديدة.

(٦) قابلت الشيخ — رحمه الله — في الجامع الأزهر مرة من المرات، واستأذن عليه طالب من نوابغ الطلبة وأذكيائهم، فلما مثل بين يديه وقف كما يقف المصلي — واضعاً يديه أسفل صدره، راميًا بطرفه إلى الأرض — وتكلم كالمناجي المتضرع حتى فرغ وانصرف. فأعظمت ذلك، ولما خرجت لحقت به، وكلمته فيه، فقال: وأنا أنكرت من جلوسك إلي جانب الشيخ تلك الجلسة ما أنكرت أنت من وقوفي على تلك الهيئة. لو تعلم أن أحدنا لا يقف أمام هذا الرجل إلا كما يقف العالم إزاء كتاب نادر مضى يفتش عنه عدة سنين، فلما رآه سجد لله شكرًا، وأنت تحسبه يسجد للكتاب.

(٧) مناسك الحج: عباداته، وكذلك مواضع العبادات.

(٨) لما انتهيت إلى هذا الموضوع من الكتابة، وفرغت من صفة الشيخ دهمتني فجأة من فجأت المرض أنستني بأيامها كل ما كنت أريد أن أخطه في هذا الفصل، وكسرت حدة نفسي، وهياتني تهيئة جديدة لكلام جديد، فكان هذا من أعجب ما اتفق.

(٩) تعكسها: أن يتراجع بعضها على بعض في انسحابها.

(١٠) أثناء ذلك، تقول: هو يتكلم، ويعمل كذا بين ظهري ذلك، أي في أثناء الكلام.

(١١) أي ذاهبهما.

(١٢) أمرًا غريبًا.

(١٣) كان أكثر زجر الشيخ لأحد أن يقول: «يا حيوان!» فيوبخ ولا يقول إلا حقًا.

(١٤) أي لا يحكم قلبها عليها إلا بما أردت أنت.

(١٥) أي خلت، والخواء (ويقصر): خلو الجوف من الطعام.

(١٦) الجزء الخلفي منه.

(١٧) أي أبصر بذلك وأخبر.

(١٨) اللجة ومكان التيار.

(١٩) أي صلة وشابكة.

(٢٠) أي مع كذا وكذا وأمور أخرى مما يمكن أن يكون.

(٢١) يمتلئ بطنه ولا يزال يشتهي.

(٢٢) المراد أنه نزل من العدم والحاجة منزلة قد يكون فقر الفقراء عندها شيئًا يسمى يسرًا.